روايات أحلام

وَردَة لا تمُوت

روبرتا نوزث

www.elromancia.com
مرمورية

وردة لا تموت

روبرتا نورث

«أنا في الثالثة والعشرين ! والنساء الكبيرات في السن وحدهن يصبن بسرطان الثدي !»

وأحست سالي بالعالم من حولها ينهار، وكأنه الجدار الهش. . . لم يعد في حياتها أي مكان للحب. . . ودوغلاس؟. . ستهرب منه ولن يعرف مكانها. . فقد أحبها لكمال جسدها وروحها. . ولقد أصبحت الآن نصف امرأة. . . ولن ترضى أبداً بأن ينظر إليها بإشفاق.

ولكن هل سيتخلى عنها دوغلاس بهذه السهولة؟

وهي. . ألم يعد هناك مكان للحب في حياتها [illegible]

السعر ١٥٠٠ ل.ل.

ن دار الفراشة

١ ـ أتقبلينني زوجاً ؟

ما ان اطلت الفتاتان من محطة المترو حتى نظرت سالي إلى الأعلى لتجد منطاداً مضاداً للطائرات يحلق في السماء وقد انعكست اشعة الشمس على سطحه الفضي الذي بدا كمرآة بيضاوية ضخمة.

ـ انظري. (قالت سالي لرفيقتها فيليسا)

فكان ان رفعتا رأسيهما الى فوق لتحثا الخطى بعد ذلك قاصدتين قاعة الرقص المحمية بأكياس الرمل حيث طالعهما جندي من الشرطة العسكرية يقف امام الباب ليرشد الداخلين فقال لهما وهو يحدج جسديهما النحيلين بنظرة اعجاب :

ـ مساء الخير ايتها الفتاتان. . . شباك تذكر الجنود الى اليسار.

ازاحتا الستائر السميكة التي تحجب النور، فاشترتا تذكرتين، ثم تابعتا سيرهما في الممر عبر باب مزدوج الى عالم جديد مختلف فيه الاضواء الساطعة والموسيقى الصاخبة. كانت قاعة الرقص هذه مكاناً واسعاً، الى يسارها مسرح مزين بالأعلام فيه فرقة موسيقية كاملة من رجال يرتدون الزي العسكري، وهم يعزفون آخر الحان غلين ميللر. . وفي الطرف البعيد هناك «بار» يمتد الى آخر القاعة، والى اليمين مسرح آخر، أصغر حجماً، تقف عليه مغنية مشهورة، منشغلة بتوقيع «الاتوغرافات». .

ولكن ما صدمهما أكثر من أي شيء هو كثرة الناس الذين شغلوا الأمكنة كلها فباحة الرقص مكتظة بهم والجهات كافة ممتلئة بالواقفين المنتشرين هنا وهناك.

وقفت الفتاتان دقائق عند المدخل، تتأملان القاعة إلى أن قالت

فيليسا :

ـ هناك أكوام من الناس في بذلات عسكرية هنا. بل ممرضات أيضاً.

ردت سالي، وهي تدفع خصلة من شعرها الكستنائي :

ـ أجل. . أنا سعيدة لأننا نرتدي البذات العسكرية. فلنفتش عن الباقين فلعلهم قرب البار.

شقتا طريقهما وسط النظرات المحدقة وتعليقات الاعجاب من الرجال الذين مرتا بهم وكيف لا وهما فتاتان جميلتان نحيلتان تتحركان بخفة ورشاقة، مضفياً عليهما زيهما الرجولي لمسة إثارة إلى مظهرهما الأنثوي.

التفتت سالي ناحية فيليسا وهي تشير الى رفاقها صائحة :

ـ هاهم هناك.

ثم تابعت سيرها مسرعة فاصطدمت برجل كان قد استدار بقوة عن البار حاملاً بيديه اكواب الشراب :

ـ انتبهي !

لكن الشراب انسكب من الأكواب على بذلته الرسمية. .

ـ آسفة !

قالت سالي متأسفة ثم رفعت بصرها لتطالعها أطواق ذهبية ثلاثة وجناحا طيار على صدره الايسر تدل جميعها على أنه قائد سرية فقالت بسرعة :

ـ آسفة يا سيدي.

أجابها الضابط ضاحكاً :

ـ الحمد لله أنك لست كابتن طيران. . .

كان عليها أن ترفع راسها لترى وجهه وهذا أمر ما اعتادته قطّ لأنها غالباً ما كانت تنظر الى الأسفل عندما تتكلم مع الرجال، لكن

ما رأته أثار اعجابها فالطول فارع، والوجه الوسيم فيه عظام الذقن مرتفعة بارزة، أما العينان فرماديتان تبعثان الرهبة في النفس، لكن تحديقها لم يطل أكثر من برهة لأن صديقتها المتشوقة للانضمام الى رفاقها جذبتها بعيداً عن هذا الوجه الساحر.

كانت المجموعة التي قصدتاها مؤلفة من ستة اشخاص، امرأتين واربعة رجال يرتدون بزات رسمية. بعد وصولهما بوقت قصير انغمس الجميع في الرقص وسط هرج ومرّح جعل الوقت يمضي سريعاً وفي إحدى جولات الرقص، وجدت سالي نفسها تقف على بعد يارد واحد من قائد السرية. الذي لم تلاحظه في البداية ولكن إحساسها بأن هناك من يراقبها جعلها تستدير لترى العينين الرماديتين، اللتين عرفتهما على الفور تحدقان إليها في نظرة عميقة طال أمدها. وابتسمت سالي قبل أن تعاود النظر إلى باحة الرقص متابعة التصفيق.

وبعد ذلك، لاحظت مرات عديدة الجسد الطويل، الذي على ما يبدو برفقة جماعة من العسكريين يراقص فتيات مختلفات وقد تراجعت قبعته إلى الخلف قليلاً لتكشف عن شعر أسود كثيف طويل نسبة إلى الضباط الموجودين في القاعة .

عند التاسعة والنصف توقفت فرقة الموسيقى للاستراحة فحلّت مكانها فرقة أخرى أقلّ من الأولى عدداً، صاح أحد الحضور :

ـ هاي. . إنهم يبيعون «الهوت دوغز» الأميركية.

فوقف الرجال من مجموعة سالي في الصف ليشتروا منها. أما سالي فذهبت إلى غرفة النساء، وعندما عادت، توقفت مصعوقة حين تعالت صفارات الإنذار التي تعلن عن غارة جوية، سرعان ما تبعها دوي انفجار.

ـ اختبئوا. . . ! اختبئوا !

ودخل رجلان من مراقبي الغارات في أزيائهم السوداء والخوذات وهما يركضان إلى القاعة ويصرخان، ويطلقان صفاراتهما في وقت بدأ دوي المضادات الأرضية في الخارج.

وقفت سالي مذهولة مرتبكة تبحث عن رفاقها ولكن رجلاً أمسك بذراعها، وركض معها عبر جماعات الناس المذعورين الذين يبحثون عن ملاذ يحميهم، وحين وصلا إلى طرف القاعة دفعها إلى أسفل إحدى الطاولات أولاً ثم تبعها بعد ذلك فاستدارت لتشكر منقذها لكنها لم تدهش تماماً عندما أدركت أنه القائد الرمادي العينين.

ـ شكراً. . من الواضح أنك قمت بهذا العمل اللطيف من قبل.

ـ عندما أسمع نداء الاختباء لا أتردد أبداً.

ـ أبهذه الطريقة نلت وسامك هذا؟

أجابها ضاحكاً :

ـ إنه الحظ.

قال كلمته تلك ثم تابع مشيراً إلى حيث كانت تقف مع رفاقها.

ـ أرى أن تذهبي إلى أصدقائك الأمركيين.

ـ لا أستطيع مقاومة الإغراء.

غطت أذنيها بيديها عندما دوى انفجار قريب عبقت دُخنته في القاعة. فتعالى صوت مراقب الغارات آمراً الناس بارتداء الأقنعة.

ـ لقد سقطت هذه القنبلة قريبة جداً.

ـ كم تبقى مثل هذه الغارات عادة؟

ـ ليس لوقت طويل. . هل أنت مذعورة؟

سألها ثم وضع ذراعه حولها.

ابتسمت سالي لكنها استندت إلى ذراعه :

ـ اليس لديك قناع. . ؟

ـ لقد أضعته منذ سنوات. . . ألن تقولي لي ما اسمك؟

ـ وهل هذا أمر يا سيدي؟

ـ قطعاً.

ـ في هذه الحالة اسمي سالي، سالي برايس.

ـ برايس. . يبدو لي الاسم اسكتلندياً.

ـ تعود جذور عائلتي إلى اسكتلندا لكنها انتقلت إلى الجنوب منذ قرن مضى.

عندما سألته عن اسمه أسرع ليقول مبتسماً :

ـ اسمي دوغلاس لايت لكنني لست اسكتلندياً رغم اسمي الاسكتلندي الذي سمّانيه أبي تيمناً بأحد الأصدقاء. أعتقد أنه سيكون بيننا أشياء كثيرة مشتركة.

تضاعف عبق الدخان الذي دفع سالي إلى السعال، فقال دوغلاس وهو يشير إلى الحقيبة المتدلية من كتفها :

ـ الأمر يزداد سوءاً. لذا الأفضل لك أن تضعي القناع.

ـ أنا أستخدم هذه الحقيبة كحقيبة يد.

ضاقت عيناه :

ـ أستطيع أن أحوّلك إلى المحاكمة لهذا السبب.

ـ هل ستفعل؟

ـ سأفكر بشيء ما.

قالت سالي بخوف ساخر :

ـ أوه، أرجوك سيدي أنا جندية مسكينة أتوسل إليك ألا تثير المشاكل فقائدنا عجوز مشاكس.

ضحك بسرور غامر ثم مد يده منتزعاً قبعتها فانسدل شعرها المائل إلى الاحمرار على كتفيها ووجهها فقال :

www.elromancia.com

ـ لو كان لك مزاج الحمراء الخضراء العينين لشعرت بالأسى على قائدك المشاكس العجوز.

اشتدت أصوات مدافع المقاومات الأرضية فوق رأسيهما ثم توقفت عندما تهادى إلى سمعهما، صوت عويل طائرة تندفع نحو الأرض بعد أن خرجت عن سيطرة قائدها. وجذبها دوغلاس إلى الأرض، مقرباً رأسها إلى كتفه ليلتصق بها أكثر فأكثر.

ولم يلبث أن سمعا صوت اصطدام قوي نتيجة تحطم الطائرة وقنابلها. بقيا مشدوهين إلى أن تعالت صفارات الإنذار من جديد معلنة عن انتهاء الغارة.

صاح أحدهم عندما عادت الفرقة الموسقية إلى العزف :

ـ اعزفوا لنا لحن «الدورية الأميركية».

بعد لحظات قصيرات انضم جميع الحاضرين إلى القطار الذي شكله الراقصين. عندها خرج دوغلاس من المخبأ ليساعدها على الخروج دون أن تترك قبضته ذراعها.

ـ ما رأيك لو تجربين القوات البريطانية؟

فهزت رأسها بالموافقة :

ـ ولماذا لا؟

كان راقصاً ماهراً، أخذ يراقصها في خطوات سريعة رشيقة جعلتها تضحك وهي تتعلق به. عندما انتهت الرقصة الأولى أبقاها بين ذراعيه، ليضمها ثانية وهو يراقصها على انغام الموسيقى الهادئة التي انبعثت من جديد وسط الاضواء الخافتة التي حدتهما الى الانغماس في رقصة حالمة. قال لها وفمه على شعرها :

ـ هل مركزك في لندن؟

فابتسمت له :

ـ يمكنك قول ذلك.

ـ وهل تسمحين بأن أرافقك إلى الثكنة؟

ـ وماذا عن مرافقي؟

ـ بإمكانه ايصال نفسه.

قالت وهي تضحك مسرورة :

ـ ولكنني لا أعرفك.

ـ هذا زمن الحرب. . وقد أقتل غداً.

أجابته بشفقة وهزء :

ـ آه. . أين سمعت مثل هذا من قبل؟

ـ أرى أنك امرأة قاسية القلب. فماذا أفعل لتشفقي علي؟. . . انظري، أرغب كثيراً في أن أوصلك ياسالي. .

ـ أنا. . أنا مع صديقة.

ـ توقفي عن الاعتذار.

رفع رأسه بكبرياء ساخر :

ـ أستطيع أن أوجه لك أمراً عسكرياً متى شئت.

ـ أولكن يكون هذا استغلالاً لظروف معينة؟

ـ طبعاً. . . أليس من المفترض بضابط جيد ان يفعل هذا؟

أذعنت أخيراً لقوله برضاها قائلة : «لا بأس اذاً» ثم استدارت لتحتويها ذراعاه من جديد.

رقصا معا الأمسية كلها بعد أن اعتذرت من رفاقها لكن رفيقها بدا غير مسرور بذلك مع العلم انه لم يكن أكثر من صديق عابر.

أما فيليسا فأمسكت بيدها قائلة :

ـ لنذهب إلى غرفة السيدات.

ما ان اصبحتا وحدهما حتى قالت سالي :

ـ أعرف ما ستقولينه. . فقد يكون الذهاب مع شخص غريب أمراً غير آمن لكنني مع ذلك معجبة بذاك الشخص. . إنه انسان

مميز.

ـ هل ستسمحين له حقاً بمرافقتك؟

هزت سالي رأسها إيجاباً.

ـ هذا جنون فقد يكون أفّاقاً دجّالاً، عديني بعدم إدخاله الى شقتك.

ـ فيليسا ما عدت طفلة. أنا فتاة في الثالثة والعشرين من العمر تدرك ما تفعله.

ـ لقد قلت ذلك عن الرجل الذي خرجت معه في المرة الماضية، وقد كاد الأمر ينقلب الى كارثة. انسي الأمر يا سالي. .

ـ لا. . إنه. . لست ادري. . مختلف.

ـ آه، لا تقولي ذلك ثانية. . انت تسعين الى المشاكل يا سالي.

ضحكت سالي :

ـ لا تكوني سخيفة. . سأكون بخير.

تركت صديقتها بعد أن رتبت شعرها تحت القبعة ثم اتجهت قاصدة دوغلاس الذي كان يستند الى احد رفوف قاعة الرقص وقد فُتحت سترته بينما غرقت يداه في جيبيه، تريثت قليلا لتدرس قسمات وجهه التي تشير الى أنه في العقد الثالث من عمره، والتي تعكس ثقته وتفاؤله، فتساءلت عن مهنته التي لابد أن تسأله عنها عندما تسنح الفرصة.

ـ هل ستطير هذه الليلة؟

ـ لا. . ولكن يومي غداً حافل بالمهامات.

ـ وما هو عملك. . في الحياة المدنية؟

ـ أعمل في مؤسسة للعائلة، وأنت؟

ـ أنا عارضة ازياء.

نظر اليها بحدة، ثم فاجأها بقوله :

ـ لقد حسبت أن تحت هذا القماش الأزرق جسداً جميلاً. في الواقع أنا أمضي وقتي في الرسم في مدرسة الفنون حيث أدرس البنية الانسانية.

ـ وهل أنت فنان؟

فهز رأسه بأسف :

ـ إنها هواية. . . لكنني لا امارسها كثيرا بسبب ضيق وقتي.

ـ إنها الحرب.

ـ نعم. . انها الحرب.

كانت الساعة قد قاربت الواحدة صباحاً قبل أن يخرجا من قاعة الرقص، وودعت سالي أصدقاءها، فتلقت تحذيرا آخر من فيليسا، لكنها لم تزعج نفسها بالاستماع اليه، بل عادت إلى دوغلاس الذي سارع إلى إحاطة خصرها بذراعه.

كانت النجوم خارجاً تضيء في السماء الصافية كأنها تستقبلهما. قال لها دوغلاس وهو يقودها في الشارع :

ـ سيارتي متوقفة في الشارع على مسافة قريبة.

عند زاوية الشارع توقفت سالي لتنظر الى الخلف. كانت أكياس الرمل كما هي عند مدخل قاعة الرقص، تشع فوقها أنوار لوحة عليها اسم «قصر هامر سميث للرقص» وتحته مباشرة إعلان مضيء بالألوان يقول : «هذه الليلة ستقام حفلة رقص ساهرة تنكرية، احتفاء بذكرى يوم الغزو الحليف السنوي. . الحضور بملابس عسكرية تعود لفترة الاربعينات».

خلعت سالي قبعتها ورمتها الى الخلف في سيارة دوغلاس الجاكوار ثم استندت إلى المقعد وهي تشعر بالتعب والإثارة معا، فذكرت له عنوان منزلها لكنها اضطرت الى إرشاده أثناء اجتيازه شوارع لندن. ادهشتها مشاعرها، التي لم تشعر بمثلها قبل الآن.

لكنها عللت السبب الى الحرب ورهبتها والى القول الذي كان سائداً في ذاك الوقت : عش اليوم فقد لا يكون لك غد. . عندما توقفت السيارة بهما عند إشارة سير ضوئية التفت اليها دوغلاس قائلا :

ـ بماذا تفكرين؟

ـ بالحرب. . إن زمن الحرب رهيب مخيف لكنه مع ذلك قد يقتنص منه بعض الناس وقتاً للمرح واللهو

هز رأسه :

ـ لا أعلم إن كانت الوقائع تثبت قولك.

اضاء الضوء الاخضر، فتابع سيره قليلاً قبل ان ينحرف الى الطريق الذي يقود الى مسكن سالي. قالت له أين يجب أن يقف ثم التفتت اليه :

ـ من أين حصلت على بذلتك؟

ـ إنها ملك عمي الاكبر. . لقد خاض حرباً كبيرة. واسقطت طائرته ثلاث مرات قبل أن يشتريها اخيرا عام ١٩٤٣.

ـ اذن الأجنحة له؟

ـ أجل وكذلك الميداليات. اعتقد انه سيسر لأن ارتدائها الليلة كان سبباً في لقائنا. فعمي كان يحب النساء كثيراً.

ـ وهل انت مثله؟

ـ هذا رهن بالفتاة التي ترافقني.

رفع اصبعه ليمرره، بخفة الريشة، فوق خدها وقد تغيرت قسمات وجهه :

ـ هل سنودع بعضنا هنا. . أم أنك ستدعينني الى القهوة؟

ـ إلى القهوة فقط؟

ـ نعم إلى القهوة فقط.

جالت عيناه في الشقة حتى وقعتا على مجموعة اللوحات المعروضة على احد الجدران :

ـ هل اشتريتها بنفسك؟

ـ اجل. . اشتريت بعضها من بائعي اللوحات لكن بعضها اشتريته من سوق السلع المستخدمة.

ـ حسك الفني مرهف ومشترياتك جيدة.

فابتسمت له :

ـ أشكرك على هذا الثناء، فمن الواضح أنك على معرفة وافية بالرسم.

ـ إنه أحد الموضوعات التي نضطر إلى درسها في كلية الفنون.

ـ بالطبع. . لقد نسيت. . ماذا تحب أن تشرب؟

ـ القهوة ستكون رائعة.

تبعها إلى المطبخ مستنداً على حافة الباب.

ـ لم تخبريني شيئاً عن طباعك السيئة.

فضحكت سالي :

ـ لم تؤاتني فرص كثيرة أظهر فيها غضبي.

ـ لا. . لا أعتقد هذا. من أي نوع من العارضات انت؟

ـ عارضة ازياء، عارضة تصوير، أنا أعمل في مجالات العرض الممكنة.

أعطته فنجان القهوة ثم عادا إلى غرفة الجلوس.

ـ وهل تجلسين أمام الفنانين للرسم؟

ـ لا. . لم يطلب أحد مني ذلك قط.

ـ واذا طلبت انا منك؟

ـ هذا سيتوقف على. . . ؟

ـ على ماذا؟

www.elromancia.com

ـ على الوضعية التي ستطلبها مني وعلى الأجرة التي ستدفعها بالطبع.

ابتسم دوغلاس بكسل :

ـ لقد تجاوزت مرحلة رسم العراة، إذا كان هذا ما تفكرين فيه. كما أنني لست من هذا النوع من الفنانين.

ـ من أي نوع من الفنانين أنت؟

ـ أنا أرسم كل الأنواع التقليدية، من رسومات شخصية ومناظر وغير ذلك لأحافظ على مهارتي، لكنني رسمت بضع رسومات «سوريالية»، سأريك إياها يوما لتعطيني رأيك فيها.

كانت لهجته واثقة من انهما سيلتقيان كثيرا في المستقبل، بعد ذلك تابعا الحديث عن الفن، فاكتشفت سالي أن دوغلاس أكثر معرفة منها. عندما أنهى فنجانه الثاني وقف قائلاً :

ـ أخشى أن عليّ الذهاب الآن. فأمامي نهار حافل بالعمل غداً أو بالأحرى اليوم.

ـ ما هو عملك.

ـ أنا مهندس في مؤسسة والدي، وعليّ أن اقابل زبوناً في التاسعة والنصف في احد المواقع. فإن لم اذهب الآن فـ.. فسأبقى هنا الليل كله لأتحدث معك.

ومد يده فانتزع الملقط من شعرها، لينسدل على كتفيها :

ـ أريد أن أرسمك.. أيتها الصهباء.

طلب منها رقم الهاتف ثم ودعها قائلاً :

ـ تصبحين على خير..

اتصل بها دوغلاس في اليوم التالي، ليدعوها الى العشاء، فكان هذا الموعد الأول من سلسلة دعوات متلاحقة كانت باعثاً الى تعارفهما أكثر فأكثر.

بعد أيام قليلة كانا على يقين من أن علاقتهما ستكون دائمة، فقد بدأ الحب يتسلل الى قلبيهما عاصفاً.

كانت سالي تمارس عملها سعيدة، وكان هو بدوره يقوم بعمله الذي غالباً ما أبعدهما عن الالتقاء اسابيع. يوما اخذها الى شقته حيث أراها رسوماته التقليدية ورسوماته السوريالية التي بدت مميزة، ولم تكن سالي قد رأت رسما سوريالياً إلا لسلفادور دالي. لكن رسومات دوغلاس قد أدهشتها الى حد كبير لأنه كان يأخذ موضوعات مألوفة يغير فيها بعض الشيء دون أن يلونها كثيراً ومن رسوماته صورة جدار حجري يبدو إذا امعنت النظر فيه صورة لبيوت مرصوفة كصناديق فوق بعضها بعضاً، لها نوافذ يقف خلفها اناس يسعون الى الخروج منها.

ـ واو! من أين استوحيت هذه الفكرة؟

ـ استوحيتها من مناظر البيوت التي تزحف لتنتشر في كل بقعة من الاراضي الريفية، لكنها في الواقع ليست غايتي من الرسم بل ليست الاسلوب الذي أريد أن أتبعه.

وقفت سالي من المكان الذي ركعت فيه لتتأمل الصورة بإمعان :

ـ يجب أن تستمر في المحاولة، وأنا واثقة أنك ستجد ما تبحث عنه.

مد يده ليحيطها بذراعيه، ثم قبل رأسها وهو يقول :

ـ لم يعد يبدو لي هذا مهماً.

ـ لقد قلت إنك تريد أن ترسمني.

ـ ولا زلت أريد. هل ستسمحين لي؟

استدارت لتضع ذراعيها حول رقبته :

ـ أجل..

ـ متى؟

ـ متى شئت.

ورسمها. . ليس بالطريقة التقليدية، إنما بعينه «السوريالية». رسمها كشجرة جاعلاً قدميها جذور هذه الشجرة وركبتيها نتوءين بارزين في جذعها وذراعيها المرتفعتين غصنين نحيلين، ملبسا إياها قماشاً بنياً غدا بين يديه ظلاماً. أما شعرها الأصهب الطويل الملتف حولها فصوره اوراقاً خريفية تزخرفها أشعة الشمس. ولوّن بشرتها بلون الأوراق والجذع حتى ذابت بهما، دون أن يختفي شيئاً من قسماتها التي أعطاها كل الحياة التي شاهدها فيها، أما منتصف الجذع فقد رسم فيه صدرها الأيسر بشكل بارز دقيق.

يوم انتهت اللوحة، اخذها دوغلاس ليحتفلا، وهو يشعر بغبطة لأنه وجد أخيراً الاسلوب الذي يبحث عنه. تناولا العشاء في مطعم اصبح المفضل لديهما، ورقصا الى ما بعد منتصف الليل، وقد التصقا ببعضهما البعض كأنهما شخص واحد.

عادا الى المرسم. . حيث وقفت أمام اللوحة، فأخذ دوغلاس يتلمسها وكأنه يتلمس اللوحة، بحب وشغف، الى أن تأوهت بين يديه، فقال :

ـ احبك يا صهباء. أحب كل جزء منك، أحب وجهك الساحر وجسدك الفاتن وشعرك الحريري الأحمر.

توقف قليلاً ليضع رأسها بين يديه ثم تابع قائلاً : تزوجيني يا حبيبتي ارجوك أن تقولي نعم.

لم تقل سالي نعم بالقول، إنما قالته بالفعل فقد صرخت بغبطة وسعادة لتضمه بين ذراعيها بشغف وحب.

بعد وقت غير قصير ابتعد عنها قليلاً ليسألها :

ـ يجب أن ترافقيني الى منزل عائلتي لنعلن خطوبتنا رسميا. كنت في مقاطعة «كنت» حيث شاهدت منزلا قديما يصلح

ان يكون منزلا بعد قليل من الإصلاحات.

ـ منزل قديم؟

ـ إنه تنور قديم ضخم، كانوا يجففون فيه الحنطة.

ـ هل تريدنا أن نعيش في فرن؟

فضحك :

ـ غبية. .

ـ أخبرني المزيد عن ذلك المنزل. أتعلم أن لدي منزل خاص في الريف؟ إنه منزل ريفي صغير يقع في مراعي « يوركشاير»، كان ملك عمتي الكبيرة، شقيقة جدي التي لم تتزوج لأن خطيبها قتل في الحرب. وكانت قد ابتاعته لقضاء عطلاتها. إنه يبعد أميالاً عن أقرب مكان، لكن المناظر التي حوله رائعة كلها براري ومرتفعات مغطاة بالأعشاب والزهور. كانت عمتي قد اورثته لوالدي لأنه الأقرب اليها، لكنها عادت فأورثتني إياه بعد ان انفصل والدي.

ـ وهل تذهبين الى هناك كثيراً؟

ـ إنه بعيد جداً عن لندن، ووقتي لم يسمح لي بالذهاب اليه. لكن يمكننا الذهاب اليه معاً يوماً ما.

كانت سالي قد قابلت والد دوغلاس مرة، عندما ذهبت الى المكتب لتقل دوغلاس بسيارتها بعد أن تعطلت سيارته. أما الآن فكان عليها أيضاً مقابلة أمه وشقيقته المتزوجة. كان منزل العائلة القديم يقع في منطقة بعيدة قرب ملعب للغولف، يقضي فيه والده أوقات فراغه. أما شقيقته فكانت تعيش مع زوجها المحاسب على بعد أميال.

عندما ذهبا الى منزل العائلة يوم الأحد التالي كانت متوترة الأعصاب لأن مستقبلها رهن هذا اليوم، فقد لا يوافق اهله على زواجه من عارضة، وقد يرغبون في ان يتزوج فتاة لا تمتهن مهنة

كمهنتها. لم يبلّغ العائلة بخطبتهما لانه كان ينوي إعلان ذلك عند الغداء. لكن والدته استطاعت أن تستشف من تعبيرات وجه سالي معالم السعادة التي دلتها إلى النبأ السعيد. كانت العائلة في غاية اللطف معها حتى جعلتها تشعر وكأنها فرد من أفراد العائلة.

قالت السيدة لايت، سراً لسالي :

ـ لقد بدأت أعتقد أن دوغلاس لن يجد الفتاة المناسبة لكنني الآن مسرورة لأنه وجد فتاة جميلة مثلك.

كانت شقيقة دوغلاس اوليدا موجودة مع زوجها جون وابنتهما الصغيرة شارلوت، التي توسلت سالي كي تعدها لتكون وصيفتها يوم العرس فقالت لها أمها :

ـ قد يكون لسالي بنات اخوات يردن أن يكن وصيفات.

هزت سالي رأسها، وقد اغرورقت عيناها بالدمع :

ـ ليس لدي أشقاء أو شقيقات. ووالداي افترقا عندما كنت صغيرة، وقد تزوج كل منهما. أما اخواي من المرأة التي تزوجها ابي فلم أشاهدهما سوى مرتين. لذا يسرني أن تكون شارلوت وصيفتي.

صفقت الصغيرة بيديها وهي تصيح :

ـ متى؟ وأي لون فستان سأشتري؟

ضحك الجميع، فحملها دوغلاس ليضعها على ركبته.

ـ ليس بعد وقت قصير كما أخشى يا صغيرتي، فلدى سالي مهمة تصوير في اليونان، كما عليها الذهاب الى نيوزيلندا لقضاء عمل قد يستغرق بضعة أشهر.

تركت كلماته في قلبها إحساساً بالفراغ الموشك، وهو إحساس تشعر به كلما افترقا، لكنها راحت تتأمل الطفلة الجالسة على ركبته وهي تفكر باليوم الذي سيصبحان فيه معاً.

عند نهاية الاسبوع التالي ذهبا الى منطقة «كنت» ليشاهدا المنزل القديم الذي ينوي دوغلاس شراءه، كان يوماً صيفياً هادئاً خالياً من الغيوم، بدت فيه الأراضي الريفية غنية بالخضرة. اخذت السيارة تنهب الأرض مجتازة قرى جميلة وسلسلة من التلال والسهول الغناء الساحرة. عندما وصلا الى طريق ضيق تعترضه بوابة مزرعة.

ـ لنسر من هنا على الأقدام.

أمسك بيدها ليقودها عبر البوابة الى طريق قديم، لكنه تريث قليلا ليتأمل وجهها عندما ترى المنزل الذي بدا متداعياً، إلا أن أسسه الأصلية كانت راسخة. برجان مستديران من الآجر القرميدي الدافىء الألوان، مسقوفان بالخشب على شكل القبعة. والبرجان متصلان ببناء عند مؤخرتهما، لكن سقفه كان متداعياً، ونوافذه محطمة ومع ذلك استطاعت أن تتخيل البيت بعد أن يتم تصليحه. تأملته مسرورة قبل أن تركض نحوه.

ـ هل نستطيع الدخول. . هل المكان آمن؟

ـ نعم هيا بنا.

عندما دخلا، بدأ دوغلاس يرسم خريطة على قطعة من ورق :

ـ سنجعل غرفة الجلوس هنا والمطبخ هنا عند البرج اليمين، أما غرفة الضيوف فسنبنيها قرب الحمام.

أمسكت بيده :

ـ مهلاً فنحن لم نشتر المنزل بعد بل قد لا يكون معروضاً للبيع.

دس القلم خلف اذنه، ثم امسكت ذراعاه خصرها النحيل ضاحكاً :

ـ إنه معروض للبيع. . لقد سألت عنه عندما كنت هنا آخر مرة.

ـ ولكن قد لا نتحمل ثمنه.

www.elromancia.com

ـ نستطيع. . وفي الواقع لقد دفعت عربوناً.
ـ متى فعلت ذلك؟
ـ منذ ثلاثة أسابيع.
ـ هذا يعني أنك قد دفعت العربون قبل أن تطلبني الى الزواج. إلى هذا الحد كنت واثقاً من موافقتي؟
ـ كنت أعلم أنني أحبك، وأنني أريدك زوجة لي. عندما وجدت هذا المنزل اعتبرته نذير خير.
تأملها قليلا ثم مد يده الى جيبه، ليخرج علبة صغيرة، كان فيها خاتم من الماس اخذ يبرق بألوان قوس قزح بعد أن التقط أشعة الشمس الذهبية.
ـ اوه. . دوغلاس ! إنه رائع !
انهمرت الدموع من عينيها، فلفت ذراعها حول عنقه لتحضنه وهي تشعر بأن هذا اليوم هو أفضل أيام حياتها.
كانت الأسابيع التالية مليئة بالعمل لكليهما. وكان لابد بعد ذلك من الافتراق مدة ثلاثة اشهر حيث تقضيها سالي في عمل في اليونان بينما يقضيها دوغلاس في نيوزيلندا لإنهاء الاعمال العالقة.
بعد أن سافرت شعرت سالي بفراغ كبير رغم الاعمال الكثيرة التي كان عليها إنهاؤها. فقد افتقدت السير معه وقد تشابكت ايديهما كما افتقدت ذراعه التي لا تفارق خصرها ونظراته الحنونة المحبة التي تملأ وجهه كلما نظر إليها.
كان قد مضى على وجودها في اليونان ثلاثة اسابيع عندما لاحظت أن بشرة ثديها الايسر قد بدأت تتجعد. في البداية لم تكترث للأمر بل لم تعاود النظر اليه ثانية، لكن في أحد الأيام رأتها إحدى العارضات عندما كانت تبدل ثيابها فقالت لها :
ـ لوكنت مكانك لعرضت الأمر على طبيب.

دهشت سالي من قولها. فتقدمت لتتأمل نفسها في المرآة، فقطبت حاجبيها بعد أن وجدت أن التجعد ازداد في ايام معدودة.
تلك الليلة اتصلت بدوغلاس لتودعه قبل سفره إلى «نيوزيلندا» وكادت أن تذكر له شيئاً عما لاحظته، لكنها عادت فعدلت عن ذلك خاصة وأنه كان يردد دائماً أنه يراها كاملة، فكيف لها أن تذكر له ذلك وهو يوشك على السفر بل لعل ما رأته عارضاً بسيطاً سببه الشمس الحارقة التي لم تعتدها. ومع ذلك فقد أحست بعدم ارتياحها للذهاب الى الطبيبة حال ان وصلت انكلترا، وأحست بالقلق اكثر عندما أرسلتها لإجراء صورة شعاعية، وحصلت لها على موعد مع أخصائي في علم الأورام. بعد فحصها قال الأخصائي، وهو رجل في العقد الرابع من عمره.
ـ قد يكون نوع من الالتهاب، ولكن يجب ان أجري فحصاً زراعياً لأعرف.
ـ فحص زراعي؟
ـ إنها عملية صغيرة للاختبار لا تزعج إطلاقاً، ما عليك سوى قضاء ليلة واحدة في المستشفى.
ـ وهل. . هل سيكون الجرح كبيراً؟
ـ لا لن يكون كبيراً.
وتنهدت سالي بارتياح، ثم ابتسمت :
ـ انا جاهزة متى شئت.
ـ جيد ما رأيك غداً بعد الظهر.
استغربت تحديده الموعد قريباً، لكنها قالت :
ـ أجل. . لا بأس.
ذهبت إلى المستشفى الواقعة في لندن وحدها لأن صديقتها فيليسا كانت قد سافرت في مهمة ولأنها لم تجد من الضروري

الإتصال بإحدى صديقاتها الأخريات.

كانت قد أحضرت فستان نومها من البيت لكنهم ألبسوها هناك ثياب وأعطوها قبعة فجعلتها هذه الثياب تشعر بالتوتر. لكن الممرضات طمئنتها، فنزلت إلى غرفة العمليات دون خوف.

استفاقت بعد ساعتين، تحس بالجفاف والعطش والدوار من تأثير البنج، كان هناك رباط على ثديها ولكنه لا يؤلم، وعندما حضرت رئيسة القسم لتراها سألتها سالي عن العملية، فقالت الرئيسة إنهم بانتظار نتائج المختبر. وعليها الانتظار حتى المساء حيث سيحضر الاخصائي ليراها.

في اليوم التالي جاءها الاخصائي ليقول لها دون تمهيد او تنميق لكلماته التي سببت لها صدمة :

ـ لقد حصلنا على نتائج المختبر. . وأخشى أن تكوني مصابة بسرطان الثدي.

حدقت سالي إليه بعينين مذعورتين، فتابع :

ـ سوف نجري لك عملية استئصال.

ـ انت. . انت تعني. . .

ـ اجل. . . إزالة كاملة للثدي الايسر.

٢ ـ كيف يموت الحلم

بقي عقلها مشلولا للحظات، لكنها استطاعت أخيراً أن تقول بحدة :

ـ لابد أنك تعني ازالة الورم فقط. . ؟

هز الطبيب راسه :

ـ لا. . إن الورم ممتد أكثر من هذا. لذا يجب أن يستأصل كاملاً.

حدقت إليه، وهي عاجزة عن الاستيعاب، ولكن لم يلبث أن تملكها الغضب، فتدفق الاحتجاج منها :

ـ أنت مخطىء ! لا بد أنك مخطىء ! لا يمكن أن أصاب بالسرطان. فأنا في الثالثة والعشرين فقط ! والعجائز وحدهن يصبن بسرطان الثدي.

ـ آسف. . ليس هناك ادنى شك. . إنه. .

ـ إنك مخطىء ! أريد رأياً غير رأيك.

ـ هذا من حقك بالطبع. . سأعود في الغد صباحاً لنتحدث عن الأمر.

وضع يده على كتفها ثم قال بصوت متعاطف :

ـ أعلم أن وقع الأمر ثقيل على النفس، لكن ورمك متقدم الى درجة تدفعنا إلى إزالته انقاذاً لحياتك.

كانت هذه الكلمات الشعرة التي قصمت ظهر البعير، فالأمل البسيط الذي كانت تأمله مات إثر كلماته، فالسرطان يهددها بالموت. بعد فترة قصيرة خرج الاخصائي وأغلق الباب وراءه، تاركاً إياها تفكر بدنياها التي غدت ممزقة، أخذت تصرخ بألم «لا،

www.elromancia.com

لا» وهي تضرب الفراش بقبضتيها، محاولة دفع براثن القدر بقوة الإرادة، لكن دموعها أبت إلا السقوط بيأس قاتل وسط كلمات الرفض التي تتعالى من فمها «لا، لا».

دفع صراخها رئيسة الممرضات إلى المجيء برفقة ممرضة اخرى، فحاولتا إمساك ذراعيها اللتين حاولت أن تدفعهما بهما للخروج من السرير.

ـ هذا غير صحيح. . لقد ارتكبوا خطأ. . سأذهب الى منزلي. .

بعد جهد جهيد استطاعت الرئيسة اعطاءها حقنة مخدرة لم تخدرها تماماً لأنها كانت من وقت لآخر تصحو رغم الدوار الذي يشل تفكيرها الذي يعلم ان شيئاً رهيباً سيحدث لها. اخذت تتقلب دون راحة من جانب الى آخر وهي تتأوه عندما تحس بألم ثديها. . ثديها. . اوه. . اجل. . ولكن لا يمكن أن يفعلوا هذا بها. . فدوغلاس يحبها كاملة لذا لن يدعهم يؤذونها، سيحميها منهم جميعاً

استطاعت هذه الفكرة التي نطق بها عقلها الباطن من اعطائها بعض الراحة فاستسلمت إلى النوم إلى أن صحت ثانيةمع الفجر عندما بدأت الاصوات والحركات في المستشفى بالظهور من جديد. كانت تحدق في الفراغ وهي ما زالت خاوية القوى، لكن الوخز الذي شعرت به في ثديها أعاد إليها الذكرى الأليمة.

اوه. . لا! اوه. . أرجوك يا الهي، لا تدع الأمر يصبح حقيقياً، ولكن عيني الممرضة المشفقتين، التي اقبلت اليها لرؤيتها سائلة اعترضتا دعائها.

ـ هل تريدين تناول الطعام؟

ـ لا. .

ـ أما زال الدوار قائماً؟

ـ لا. . لكنني لا أريد شيئا.

رفعت الممرضة طرف السرير لتستلقي سالي على الوسائد، وهي تشعر بأنها متلاشية. لكن عقلها المشلول عاد الى العمل، فتذكرت المقالات التي قرأتها في المجلات عن سرطان الثدي، تلك المجلات التي كانت تنظر اليها بفضول رغم يقينها من استحالة إصابتها بهذا المرض.

تدافع الأمل من جديد الى نفسها عندما ظنت أن الأخصائي سيجد حلاً آخر غير الاستئصال التام، فقد يستخدم الأشعة أو عملية زرع الأنسجة او غير ذلك من العلاجات دون أن يضطر الى استئصال ثديها. ارتفعت روحها المعنوية إثر هذه الفكرة لذلك نهضت لتغسل وتزين وجهها.

حضر الأخصائي باكرا، فتنهد قليلاً عندما رأى آثار الصراع والعذاب النفسي المرسومين في عينيها، فقال لها قبل أن يسمح لها بفرصة للكلام.

ـ لقد اعدت الاختبار ثانية نظراً لصغر سنك وكانت النتيجة هي ذاتها، السرطان عندك امر اكيد لا مفر منه.

ـ قد تكون التحاليل لشخص آخر.

هز رأسه نفياً، وكأنه قد توقع سؤالاً كهذا، فعضت على شفتها وقالت وهي ترضخ للأمر الواقع.

ـ حسناً. . في هذه الحالة سأعالج بالأشعة بدل العملية.

هز رأسه مجدداً :

ـ ليس امامك خيار آخر، فالسرطان عندك نوع من الورم الذي يبقى في مكانه فترة من الزمن دون أثر يذكر إلى أن يحين وقت ما يخرج فجأة بعد أن تكون جذوره قد امتدت بطريقة تصبح العملية

هي علاجه وخياره الأوحد.

ابيض وجه سالي، فامسكت بشراشف السرير بقوة :

ـ أأنت واثق من قولك، أليس من طريقة أخرى؟ أنا على استعداد تام لأي شيء، حتى وإن تساقط شعري او. . .

تلاشى صوتها بعد أن شاهدته يهز رأسه، ورفرفت عينيها بقوة لتمنع الدموع من الانهمار لكنها تابعت وصوتها مرتجف :

ـ في هذه الحالة. . يجب أن تجرى لي عملية زرع في الوقت نفسه مع العملية. . .

ـ أنا آسف لا يمكن ذلك، لأن الورم عندك لا يسمح بعملية زرع قبل مضي سنتين على الأقل.

ـ ولكن يجب عليك ! يجب عليك ! أتفهم؟ لدي المال، أستطيع أن أدفع. . وان كنت عاجزاً عن ذلك فاحضر طبيباً آخر.

تعالى صوتها إلى درجة الهستيريا، فرد عليها بصبر :

ـ ليست القضية مرتبطة بالمال، لأنني أرفض هذا العلاج خشية ان يعاودك المرض.

ـ أتعني أنه قد يعود؟

ـ قد يحدث ذلك.

ملأ اليأس قلبها.

ـ اوه. . يا الهي لا بد أن هناك طريقة أخرى، لابد من طريقة أخرى.

ولكن الاخصائي تابع هز رأسه نفياً.

تصورت سالي الشقوق الموجودة في السقف شيطاناً ذا وجه مشوه أنفه طويل وقرونه طويلة، ولم تكن سالي قد لاحظت الشقوق قبل ذلك، أما الآن بعد أن جفاها النوم فقد راحت تحدق فيه وعيناها واسعتان لا ترفان ولو قليلاً، تسيطر على عقلها فكرة

التشويه، نعم ستصبح مشوهة، مشوهة، كان صدى هذه الكلمة يتردد في كيانها كله راسماً لها درباً قاسياً فكيف لعارضة أن تكون بثدي واحد بل كيف لعروس. . حاولت جاهدة تناسي الأمر، لكن الفكرة كانت تقبض على كل ذرة من تفكيرها فكيف سيتقبلها دوغلاس الذي طالما ردد أنه يحبها لكمالها وجمالها. فهل سيبقى على حبه لها بعد ان يشوّه جسدها؟

ملأ اليأس قلبها ثانية، فأخذت تنتحب بقوة وهي تنوء تحت حمل يأسها وحزنها ويداها تلتفان حول جسدها الذي خانها. تملكها غضب شديد ضد هذا الجسد الخائن لذا راحت تضربه بكره وعنف وهي تصرخ :

ـ لماذا انا؟ لماذا انا؟ ماذا فعلت؟

كانت تريد من يؤاسيها، من تستطيع البكاء على صدره، لكن كيف السبيل الى ذلك والقدر يعاكسها في كل الأمور، فاليوم يوم عمل وصديقتها فيليسا لا تزال في فرنسا ولن ترجع قبل اسبوع من الآن وذلك عندما تعود سالي الى المستشفى ثانية لتجري العملية. . . الاستئصال. . لا تستطيع ابدا ان تجبر نفسها على التفوه بهذه الكلمة.

تلاشى ضوء النهار أمام عتمة المساء، فأجبرت نفسها على النهوض كي تصنع القهوة، وهي عاجزة عن التفكير بالطعام وكيف لها ذلك وعالمها كله منهار ولا سبيل الى إصلاحه قبل سنتين، إذ لا يمكن إجراء عملية تجميل لثديها قبل سنتين اخريين. لكن ماذا ستفعل حتى ذاك الوقت؟ فهل ستستطيع العيش إلى ذلك الوقت؟ لا، لا يجب ان تكون سلبية الى هذا الحد بل عليها التفاؤل قليلاً كما قالت لها رئيسة الممرضات.

في الصباح التالي كان عليها الذهاب الى المستشفى لتصور

www.elromancia.com

صدرها وقفصها العظمي بالأشعة، فكان أن اضطرت الى الجلوس في وضعيات مختلفة، استغرق التصوير فترة طويلة لكن النتيجة التي طالعتها كانت مقبولة فعظامها نظيفة وهذا أمر سار، فهي تريد أن تعيش ولو رافقها التشويه.

ذلك المساء ذهبت الى شقة دوغلاس ودخلتها بمفتاحها الخاص الذي أعطاها اياه. وادارت آلة التسجيل على اغنية دوغلاس المفضلة، ثم دخلت المرسم، وكانت لوحة جديدة لها تقف على القائم الخشبي. مغطاة بقماش أبيض، فأزالت القماش عنها وحدقت الى الصورة المنتهي نصفها وقد رسم نصفها الاعلى من جسدها النابض بالحياة والإثارة. يا لسخرية القدر! أخذت تنظر الى اللوحة التي تظهر عينيها الزمرديتين المليئتين بالحيوية والشباب والسعادة. وجيدها الابيض، وكتفيها المرفوعتين، والثديين اللذين بدوا بهجة للعين. وقفت تتأمل الرسم وقتاً طويلاً ثم بدأت تتلمسه متسائلة عما سيكون شكلها بعد العملية. فهل سيتحمل دوغلاس رؤيتها بثدي واحد. راحت تتصور الكلمات التي ستصف فيها حالها ووضعها، كما راحت تتصور ردة فعله على ذلك. فهل سيهرب من منظرها المشوّه؟ ام هل سيشمئز من النظر اليها. أيعقل بعد هذا الحب كله أن يموت كل شيء كأن شيئاً لم يكن. «يا الهي كيف لي القدرة على الاحتمال»؟

غطت الصورة بيأس ثم خرجت لتجلس على سرير دوغلاس وهي تحاول أن تدرس المشكلة من وجهة نظر دوغلاس. كانت تعلم أنه لن يتخلى عنها أبداً بل أنه سيقف الى جانبها ليؤازرها. وسيصر على الزواج بل سيحبها ايضاً، لكن كيف سيكون له الكمال الذي ينشده في المرأة التي يريدها. وكيف لعيني الفنان فيه أن تقبلا جسدها مشوّهاً. قد يخفي مشاعره تلك لكنها تعلم انه سيتزوجها

بدافع الشفقة لا الحب.

في الصباح التالي اتصل بها دوغلاس من «نيوزيلنده».

ـ مرحباً يا حبيبتي.. كيف حالك؟

ـ ب.. بخير.. و.. أنت؟

ـ أتوق للرجوع، حاولت الاتصال بك ليلة أمس لكنني لم أحصل على جواب.

ـ كنت في شقتك.. كانت باردة لذا أدرت جهاز التدفئة المركزية.

ـ شكراً، هل بقيت هناك طويلاً؟ لقد اتصلت عدة مرات.

ـ أجل.. في الواقع.. أنا.. لقد استلقيت في سريري، ولابد أنني استغرقت في النوم.

ـ ولم أكن هناك لأعتني بك. عديني بالاعتناء بنفسك، فأنا مشتاق إليك يا حبيبتي.

ـ اوه دوغلاس.. دوغلاس هناك شيء أريد أن أخبرك اياه.

لكنه لم يسمع شيئاً مما قالته لأنه كان يتابع حديثه:

ـ لا اكاد أطيق صبراً حتى أعود فأراك. ترينني كل ليلة مستلقياً وأنا أفكر بجمالك وسحرك وبالصور التي أريد أن أرسمها لك. لذا اعتني بنفسك وبجسدك الجميل ايتها الحبيبة.

ـ اجل.. اجل بالطبع.. وانت اعتني بنفسك ايضاً. ودائماً يا دوغلاس.. أحبك.

أعادت السماعة مكانها ثم جلست تحدق فيها لوقت طويل. وهي تدرك أنها لا تدري كيف سيكون مستقبلها، أو ما عليها القيام به في هذا المستقبل. مخاوفها الجسدية جعلتها تنسى كل الآلام التي قد تسببها العملية.

وبقيت على هذا الحال حتى ليلة العملية. حيث خافت مما

سيصيبها من ألم اثناء الجراحة، لكن الذي حدث كان غير ما توقعته فهي عندما استيقظت بعد العملية وجدت ابرة المصل قد غرزت في يدها، بينما رقبتها وحلقها يؤلمانها، اما ثديها فلم تشعر بألم فيه حتى مضى وقت قصير حيث شعرت وكأن قبضة قوية تمسك بالجهة اليسرى من صدرها، وتعصرها بقوة. وعندما حاولت رفع ذراعها أتاها ألم حاد، فأرخت ذراعها ثم راحت تنظر الى الأربطة وهي لا تكاد تصدّق أنها حية. لكنها عندما انتزعوا الأربطة كاملة صدمت صدمة قوية سببت لها انهياراً إذ رأت أن ثديها قد ازيل كله.

ذكر لها الطبيب الاخصائي انه اضطر الى استئصال جذري لم يشمل الثدي فحسب بل الغدة اللمفاوية وبعض عضلات الصدر التي كانت السبب في هذا الألم الذي شعرت به عندما رفعت ذراعها، لذا كان شفاؤها أسرع بكثير من تلك المرأة القابعة الغرفة المجاورة والتي اجريت لها العملية ذاتها دون أن تشعر بأسى أو بضيق كما حالها هي.

وقد حاولت تلك المرأة أن تخفف وقع الوطأة على سالي فقالت لها بشيء من الفلسفة :

ـ أنا انظر الى الأمر من الوجهة الحسنة، لذا أشكر ربي لأنني تخلصت من هذا الورم الخبيث الذي قد يقضي على حياتي. وها أنا أقبل على الحياة سعيدة لأنني سأرى احفادي من جديد. فتوكلي على ربك يا فتاة ولا تيأسي.

عندما جاء الطبيب ذاك اليوم سألته سالي عن سبب الورم الذي تصاب به النساء. أجابها :

ـ لم يثبت العلم شيئاً اكيداً عن أسبابه، فمن المستغرب أن تصاب فتاة في مثل عمرك بهذا المرض، والأبحاث التي قمنا بها ساعدتنا على تحديد اسباب بعض انواع السرطان، وها نحن نثابر

على ذلك ساعين إلى إيجاد دواء يعالج هذا المرض الخبيث الذي ما زال الشفاء منه امر بعيد المنال.

طلبوا منها في المستشفى رؤية مستشارة من جمعية النساء المستأصلات الثدي. . وهي امرأة مرت بالتجربة نفسها، لكن سالي رفضت ذلك بإصرار فهي لا تملك القدرة على التفوه بهذه الكلمات فكيف لها أن تناقش الوضع مع انسان آخر، فجلّ ما تريده الآن الخروج من المستشفى الذي كرهته لأن الجميع علم بحالها. حتى التمرينات التي أمرت بالقيام بها امتنعت عن تجربتها. لكن عندما أخبرتها تلك المرأة أنهم لن يخرجوها من هنا قبل أن ترفع ذراعها فوق رأسها لتلمس أذنها اليمنى، راحت تحاول القيام بتلك التمرينات.

غادرت المستشفى بعد عشرة أيام، مع تعليمات بأن تعود بعد شهر لتقابل المستشارة.

لم تجد احداً بانتظارها خارج المستشفى كما لم يأتها زائر وهي فيه وكيف لا يكون ذلك وهي قد امتنعت عن إعلام أحد بمصابها.

استقلت سيارة أجرة عائدة الى منزلها الذي اخذت تجوبه من غرفة الى غرفة وهي تستغرب بقاءه على حاله بينما هي قد تغيرت كلياً عما كانت عليه ومع ذلك شعرت بالسرور لأنها عادت إليه.

قطع حبل تفكيرها صوت الهاتف الذي رن بإلحاح فكان ان نظرت سالي إليه بامتعاض، وهي تفكر بالرد أم بعدمه، لكنها عندما اعتقدت أن المتصل قد يكون دوغلاس عجزت عن مقاومة رغبتها في الوصول الى السماعة.

ـ آلو؟

ـ سالي أين كنت بالله عليك؟ لقد اتصلت بك خلال هذين الاسبوعين مراراً.

كانت المتكلمة فيليسا.

- اوه. . مرحباً، لقد كنت مسافرة.

- حسبت ذلك، لكن إلى أين سافرت؟

- كنت. . . أعمل.

- ولكنني اتصلت بالوكالة حيث أخبروني عن إلغائك عقد العمل معهم.

- أجل. . لقد كان عملاً مستقلاً.

- حقاً؟ ولمن؟ لابد أنه عمل ممتاز لتتركي عقدك مع الوكالة لأجله.

وعلمت سالي أن فيليسا لن تتركها وشأنها إلى أن تعرف مع من عملت، فقالت لها :

- لا. . أنا لم اتلق أيّ أجر إطلاقاً. فلم يكن سوى عمل خيري لصالح بحوثات معالجة السرطان.

- نعم، فهمت، فأنت الآن أصبحت قادرة على تحمل ذلك لأنك على وشك الزواج من دوغلاس، بالمناسبة كيف حاله؟ هل اتصل بك مؤخراً؟

- اجل. . إنه بخير.

- عظيم. . اسمعي، هل لديك شيء غداً عند الغداء؟ يمكن أن نلتقي لنتناقل بعض الإشاعات.

- أحب هذا يا فيليسا. . لكنني اوشك على الاصابة بالرشح. لذا أرى من الأفضل الا نلتقي حتى أشفى تماما، فأنا أكره أن أنقل إليك عدوى الرشح.

- حسناً. . اتصلي بي عندما تشعرين بأنك افضل حالاً.

انقطع الاتصال، قاطعاً سالي عن العالم الذي طالما أحبته، وعملت جاهدة لتصل إليه، وفي نوبة غضب ووحشة، وضعت

شريط موسيقى وادارت آلة التسجيل، ورفعت الصوت إلى أعلى درجة حتى اصبحت عاجزة عن التفكير بأي شيء.

لم تجد شيئاً يؤكل في برادها لذا خرجت إلى مطعم صيني قريب لتشتري شيئاً. لكنها قبل ذلك وضعت قطعة القماش المحشوة على شكل ثدي التي أعطوها إياها في المستشفى لتضعها عند خروجها، ومع أنها بدت جيدة الى حد ما إلا أنها بقيت تشعر بوضعها غير الطبيعي، لأن هذه القطعة كانت خفيفة حتى جعلتها تشعر وكأنها تميل الى جهة واحدة بل ظنت أن الجميع يلاحظون ميلها.

ارتدت معطفاً فضفاضاً رغم دفء هذه الأمسية. وبعد أن كانت تسير واثقة النفس شامخة الرأس ملأى بالحيوية والشباب أخذت تسير وذراعها اليسرى فوق ثديها تحاول إخفاء ما لن يراه احد وإن قصد.

عندما عادت، سمعت جرس الهاتف يرن في الشقة، ولكنها كانت تحس بأنها خرقاء وهي تمسك ما اشترته بيدها اليسرى الضعيفة وتفتش عن المفتاح بالأخرى، لكن الرنين انقطع قبل أن تتمكن من الوصول اليه فتأففت لأنها اعتقدت أن المتصل دوغلاس الذي لن تستطيع الاتصال به ما دامت لا تملك رقم هاتفه.

كانت سالي تحب الطعام الصيني كثيراً، لكنها اليوم وجدته كالعشب دون طعم أو نكهة لذا أبعدته عنها ثم أدارت التلفزيون، فطالعتها أخبار التاسعة. . رن الهاتف ثانية، فالتقطت السماعة بأصابع مرتجفة، فإذا بها تسمع صوت امرأة تقول :

- سالي؟

- اجل.

- أنا ميريام لايت، والدة دوغلاس. . كنا قلقين عليك يا

www.elromancia.com

عزيزتي. كان دوغلاس يتصل بك كل ليلة دون جواب، وكنت ايضا خلال الاسبوع المنصرم أتصل بك دون فائدة. فهل اصابك مكروه؟

- لا.. لا.. لقد كنت مسافرة في عمل.

- ولكن ألم تخبري دوغلاس؟ لقد أصابه الرعب.

فكرة قلق دوغلاس عليها جعلت الدموع تهطل دون قصد منها، وقالت :

- لقد كان عملاً مفاجئاً، فاضطررت الى السفر دون أن أعلم أحداً.

- لكنني بناء على طلب دوغلاس اتصلت بالوكالة التي أعلمتني أنك قد تركت العمل عندهم.

- لا.. في الواقع.. لقد اختلفت معهم وأنا أعمل لوكالة أخرى الآن. يؤسفني ما سببته لكم من أرق، لكنني كنت سأتصل بدوغلاس لو أعطاني رقمه.

- أجل.. أنا واثقة من ذلك، لكن ألم يكن بإمكانك كتابة رسالة وإرسالها عبر صندوق البريد الذي أعطاك عنوانه؟

- اعتقدت أنني سأعود قبل أن تصل رسالتي، لكن الطقس الرديء أخّر التصوير أكثر مما ظننت وها أنا هنا الآن وسأحاول شرح الموضوع له.

- أجل بالطبع.. لقد أعطاني رقماً يمكنك الاتصال به اذا اتصلت الليلة.

أعطتها الرقم، فسجلته سالي، ثم تابعت :

- يا عزيزتي أنا قادمة الى لندن مع اوليدا الاسبوع المقبل للتبضع. وسنقيم في شقة دوغلاس، وأظن من الرائع أن نتناول العشاء معاً، وأن نذهب الى حفلة موسيقية أو أي شيء. فمن

السهل أكثر التحدث عن تفاصيل الزواج عندما لا يكون الرجال موجودين.. هل سيكون هذا مناسباً لك؟

- أجل بالطبع. اخبريني فقط عن موعد حضوركما لأشتري التذاكر.. فهذه دعوة مني.

- أوه.. ولكن هذا غير ضروري حقاً.. بإمكاننا...

- لا.. أنا أصر على ذلك.

- حسناً، هذا لطف منك.. فليكن الخميس القادم موعدنا حيث ستقام في تلك الليلة حفلة موسيقية رائعة.

- جيد، سأحجز طاولة في مطعم ما.

- اتصلي بدوغلاس فهو قلق إلى أقصى حد.

- نعم سأتصل به حالاً. سأراك الاسبوع المقبل إذاً، ارسلي تحياتي وحبي إلى الجميع.

أقفلت السماعة، وهي تكره نفسها على نفاقها هذا لأنها على يقين من أنها عاجزة عن مواجهة والدة دوغلاس وشقيقته وهي تتصرف كأن شيئاً لم يحدث. فكيف لها التظاهر بالراحة والفرح وأحاسيسها عكس كل ذلك.

أرادت الاتصال بدوغلاس لكنها ما ان همت برفع السماعة حتى غيرت رأيها لتفكر بما ستقوله له.

بعد أن نظفت مائدة الطعام توجهت إلى الحمام استعداداً للنوم فوجدت أنها قد خسرت الكثير من وزنها هذا عدا الذي خسرته في العملية.. بشرة وجهها التصقت بعظامها والدوائر السوداء حول عينيها أظهرتها بصورة مخيفة.

كان عليها الذهاب غداً إلى المستشفى لتغيير رباط الجرح الذي يكاد يشفى وذلك يعني أنها لن تحتاجه بعد بضعة ايام وهذا سيمكنها من شراء ثدي صناعي وهو اسم منمق زائف ليس اكثر من

www.elromancia.com

واجهة براقة تخفي به النساء اليائسات حقيقة وضعهن.

دخلت فراشها، ثم استلقت على الوسائد لتسترد شيئاً من شجاعتها عندما تكلم دوغلاس. لكن رنين الهاتف قطع عليها أفكارها، فمدت يدها لترفع السماعة :

- سالي؟

كان صوت دوغلاس حاداً ومتوتراً عبر الأميال البعيدة، فقالت له بسرعة :

- أعلم ما ستقوله، وأنا آسفة. لقد واجهني عمل مستعجل ولم يكن لدي وقت لإخبارك.

- وهل أنت بخير؟

- أجل.. بخير.. اذا استثنينا الرشح.

تحول شعوره بالراحة الى غضب عارم فقال بشراسة :

- لماذا لم تعلميني بأنك مرهقة بل لماذا لم ترسلي رسالة بواسطة أهلي او بواسطة الشركة. ألم يتبادر الى ذهنك أنني قد اقلق عليك؟

- لقد قلت لك إنني آسفة.. ولم اعتقد أنني سأغيب كثيرا.. ولكن...

- لقد كدت أستقل طائرة لاعرف ماذا حصل لك! اليس لديك حس بالمسؤولية؟

صوته كان حاداً وثائراً جداً. لذا لم تجد أمامها غير المواجهة والدفاع قبل ان تنهار كلياً أمامه، فكان ان رفعت صوتها بغضب :

- بالله عليك! لقد تأسفت عما جرى! فماذا تريد اكثر؟ لم اعتد على الارتباط أو على تقديم تقرير عن كل خطوة أخطوها.

انفجر صوت دوغلاس غاضباً :

- ارتباط! يا الهي.. أهكذا ترين الأمر؟ نحن خطيبان وهذا يعني أن لي كل الحق في معرفة خطواتك. (التقط انفاسه ثم تابع) :

- لماذا لم تتصلي بعد أن أعطتك أمي الرقم؟ لقد اتصلت بي لتقول لي إنها أعطتك إياه.

- كنت أتناول طعامي حينها. أم علي الا أكمل وجبتي قبل أن أقدّم تقريراً لك.

- لا تكوني لئيمة هكذا.

- حسن جداً! لن أكون!

صفقت السماعة في وجهه ثم جلست، وقلبها يخفق بقوة حتى تصاعد الدم الى وجنتيها الشاحبتين. ها هما قد تشاجرا بسبب غلطتها هي، لقد كذبت عليه حتى جعلته يكرهها وكل ذلك بسبب هذه العملية ولم تعد قادرة على تمالك اعصابها لذا أخفت وجهها بين يديها لتغرق في نحيب يمزّق القلوب أسى.

بعد دقائق قليلات عاد الجرس الى الرنين فعلمت أنه دوغلاس. ورأت أن الأفضل لها البقاء على خصام معه لأن ذلك يناسب خططها، لكنها عادت فغيرت رأيها لئلا ينفذ ما قاله منذ قليل فقد يستقل الطائرة عائداً إليها. فكان ان مسحت عينيها بمنديلها ثم رفعت السماعة :

- سالي.. انا آسف.

انتظر إجابتها دون جدوى لذا قال بخشونة :

- سالي؟ هل تبكين؟ اوه يا إلهي! انا آسف يا حبيبتي. لم أقصد أن اصرخ بك.. كنت قلقاً و..

- أعلم.. وأنا.. أنا آسفة أيضاً.

شهقت بالبكاء دون قصد.

- أرجوك ألا تبكي يا حبيبتي.. فأنا أشعر بأنني وحش خبيث.

- لا إن الامر لا يتعدى التعب والرشح.

- يا حبي المسكين.. سأقفل الآن، عليّ أن اتركك لترتاحي..

سأتصل بك مساء الغد.

- هل أتصل بك غداً على الرقم نفسه.

- نعم، نعم ياحبيبتي لأنني بذلك لا أزعجك برنين الهاتف عندما تكونين نائمة. . اعتني بنفسك يا حبيبتي. . وتذكري. . انني أحبك.

- وأنا أحبك. . كثيراً.

انهار صوتها، وكان عليها أن تمسك بالسماعة كي لا تقع.

- تصبح على خير يا حبي.

- سالي؟ (نطق اسمها وكأنه سيقول شيئاً) لكنه عاد فغير رأيه وهو يقول : تصبحين على خير.

في اليوم التالي قصدت وكالة العقارات التي أبلغتها بأنها تريد تأجير شقتها على ان يستلم المحامي من الوكيل إيجار الشقة ليضعه في المصرف. بعد ذلك اشترت تذكرتين للأوبرا للسيدة لايت وابنتها اوليدا، ثم حجزت لهما طاولة في مجمع الفنون، وكان هذا العمل قد سبب لها ألماً شديداً لأنها لم تلجأ الى الراحة التي أكد لها الأطباء ضرورتها، بل تجاهلت الأمر وقصدت مخزنا لبيع الألبسة فاشترت الكثير من الكنزات والبلوزات والسترات الواسعة. . منذ هذا الاسبوع ستكون أيامها كلها فارغة وعندها ستأخذ قسطها من الراحة.

كانت مخابرة تلك الليلة كسابقاتها تتضمن أشواقه وحبه ورغبته في العودة إليها ليعملا معاً على وضع الخطط اللازمة للبيت الريفي ولحفلة الزفاف، طالباً منها تحديد المكان الذي سيقضيان فيه شهر العسل.

كانت تلك الليلة مرهقة حتى الموت لكن النوم جفاها لأنها عجزت عن الاستلقاء على جنبها الأيسر الذي آلمها كثيرا وعندما

حاولت تغيير وضعية نومها وجدت صعوبة في ذلك.

وفي الصباح جرت نفسها من الفراش جراً، فأمامها يوم حافل بالعمل، إذ عليها دفع فواتير شقتها للفترة القادمة كما عليها الاتصال بمحاميها لإجراء الترتيبات اللازمة أضف الى ذلك البريد الذي عليها ان تطلب تغيير وجهته إلى حيث مسكنها الجديد. . وبعد الظهر ذهبت الى المستشفى حيث وضعوا لها الثدي الاصطناعي المناسب. . ولكنها لم تستطع ارتداءه بل حملته معها الى المنزل في صندوق وهي ترغب في رميه أرضاً لتدوسه بقدميها، لأنه سيغدو منذ الآن المظهر الخادع الذي سيظهر كمالاً لا تملك منه شيئاً.

كانت تشعر بانزعاج كبير تلك الليلة، جعلها عاجزة عن الاتصال به لتخبره الحقيقة ولأن الجبن ما زال رفيقها فقد رفعت السماعة وتركتها معلقة.

في الصباح التالي، وضبت سالي أغراضها التي لم تأخذ منها إلا القليل مقتصرة على أخذ لوحاتها وكتبها، المسجلة ومجموعة شرائطها الموسيقية. أما ثيابها فكانت جحيما حقيقيا لها لأن معظمها يلتصق على جسدها ليبرز فيها كل تقاسيم جسمها وهذا يعني أنها لن ترتدي منها شيئاً بعد اليوم، حتى ثيابها الداخلية ستتركها هنا لئلا تتذكر الوضع الذي كانت عليه سابقاً لذا جمعت ثيابها الداخلية ووضعتها في كيس كبير فوق أشياء كثيرة اخرى، وأسرعت إلى محل لبيع الثياب المستعملة، وطلبت من الفتاة الدهشة أن تعطيها لجمعية خيرية ثم أضافت بقسوة :

- فلتكن جميعها إلى جمعية أبحاث السرطان.

وضعت كل ثيابها الواسعة في الحقائب، وأضافت فقط ما هو ضروري من أدوات الزينة والتجميل التي ترددت في أخذها أيضاً.

وبعد الظهر نظفت الشقة، لكنها أحست بإرهاق شديد دفعها إلى رمي نفسها على السرير لتغط في نوم عميق.

عندما استفاقت كان الليل قد حل، وجرس الهاتف يرن، ومدت يدها اليه وقالت وهي نصف نائمة :

ـ آلو؟

ـ حبيبتي؟

ـ مرحبا دوغلاس.. كم الساعة الآن؟

ـ هل كنت نائمة؟ آسف يا حلوتي. كيف حال رشحك؟

ـ كما هو على ما أعتقد، وأنت كيف حالك؟

ـ أنا بخير لا ينقصني سوى رؤية وجهك الحبيب الذي أتمنى ان اقضي العمر كله معه. لماذا كان خطك مشغولا البارحة؟

ـ أجل.. آسفة لهذا، لقد فتحت السماعة في غرفة النوم عندما نمت بعد الظهر ونسيتها مفتوحة..

عضت على شفتها وهي تشعر بغصة كبيرة لأنها ستكون المرة الاخيرة التي ستتكلم معه.

ـ دوغلاس.. أنا آسفة، لقد أخذت قرصاً منوماً واشعر بنعاس شديد. فهل.. فهل تمانع لو أجلنا الكلام حتى الغد؟ فقد اكون عندها أفضل حالاً.

ـ اجل.. بالطبع. آسف لأنني أيقظتك.. اسمعي، سوف أعطيك هذا الرقم ليتسنى لك الاتصال بي متى شئت.

أعطاها الرقم الذي كررته دون أن تسجله، فقال لها :

ـ تصبحين على خير يا حبي.

ـ تصبح على خير.

ـ سالي؟

ـ نعم؟

ـ لا شيء.. أنا أحبك وأفتقدك كثيرا.

استيقظت في اليوم التالي وهي تشعر بأنها أفضل حالاً لأن كل شيء قد انتهى الآن ولا سبيل إلى التراجع. فعليها الآن الذهاب إلى الوكيل لتسلمه مفتاح الشقة، بعد زيارتها الوكيل قصدت شقة دوغلاس حيث بقيت مدة طويلة هناك تتلمس أغراضه ولوحاته كلها بحنان وحب كأنها تودع حبيبها الذي لا تعلم متى قد تراه ثانية بل ربما لن تراه ثانية ابداً.

أخرجت من حقيبتها رسالتين وضعتهما على رف المدفأة، الأولى موجهة لأمه، وهي تحتوي على بطاقتي الأويرا مرفقة باعتذار لأنها لن ترافقها أما الثانية فلدوغلاس وهي رسالة قصيرة فارغة المحتوى :

«لا أعلم ماذا سأكتب اليك في هذه الرسالة، لقد التقيت شخصاً آخر، سأرافقه لاعيش معه. يؤسفني هذا الأمر، لكن ليس باليد حيلة».

بعد ذلك خلعت الخاتم الماسي من يدها ووضعته بعناية في علبته قرب الرسالة، ثم وبقلب منكسر، استدارت لتهرب خارج الشقة..

٣ - بيت الذكريات

مضت ثلاثة أيام قبل ان تصل سالي إلى «يوركشاير». وكان قد تملكها الحزن الشديد في اليوم الأول حتى أن دموعها هطلت بغزارة دون إرادتها مانعة عنها الرؤية بوضوح، توقفت بعد ان اجتازت مسافة غير بعيدة عن لندن لتحجز غرفة في الفندق حيث لاحظ موظف الاستقبال هناك حالتها وعندما سألها عما إذا كانت مريضة تمتمت قائلة إنها قد فقدت والديها ثم أسرعت إلى الغرفة وهي تشعر بالأسى لأنها كذبت، لكنها عندما أوت إلى فراشها أحست انها فعلا قد فقدت أهلها. ففقدانها دوغلاس وفقدانها عملها يعني انها خسرت أهم ما في حياتها.

في الصباح التالي اندفعت بسيارتها على الطريق العام، وهي تجد صعوبة في استخدام الحزام، لأن ذراعها آلمتها حتى حدتها إلى ان تتوقف مرات عديدة. وأخيراً استسلمت لتقضي الليل في نزل صغير يستقبل المسافرين.

وعندما وصلت في اليوم الثالث إلى منزل عمتها كانت تشعر وكأنها قد سافرت منذ أسابيع لا منذ أيام.

جعلتها كآبتها وحزنها تتوقع أن يكون الطقس ممطراً لكنها وخلال قيادتها السيارة عبر الطرقات الضيقة، رأت الشمس ترسل أشعتها عبر تلال المراعي الواسعة، وكأنها تعانقها بحرارة. خلال سيرها كانت تتوقف قليلاً لتنظر إلى الخريطة لأنها رغم محبة عمتها لها لم تزر منزلها الريفي منذ انفصال والديها كما ان عمتها نادرا ما استخدمت المنزل في سنواتها الأخيرة.

توقفت سالي عند مفترق الطرق لتراجع الخريطة ثانية، ثم

تراجعت إلى الوراء في مقعدها محاولة تذكر الأيام التي أمضتها هنا، حيث كانت عمتها تستقبلها عند محطة القطار في سيارة قديمة كما تذكر. لتسيرا بعد ذلك مسافة طويلة عبر مراع ومنتزهات قائمة على طول النهر الذي طالما قضيا الوقت على ضفافه حيث كانت تجتازه عبر حجارة مرصوفة، وها هي تتذكر أيضاً ذلك الدير القديم والمتاحف التي زارتها إضافة إلى الأوقات التي قضياها حول المدفأة في الأيام الممطرات حيث كانت تعلمها عمتها الخياطة.

تنهدت سالي، ثم استدارت يساراً لتصعد تلة مرتفعة، وهي حذرة في مراقبة الخراف التي كانت تتجول على الطريق من المراعي غير المسيجة، وبعد ميل آخر، اخذت تهبط التل من الناحية الأخرى وهي تمر عبر قرية صغيرة فيها بعض البيوت التي لا تذكر انها قد رأتها يوماً، بعدئذ وصلت إلى مزرعة بدت لها مألوفة بعض الشيء لذا تابعت سيرها حتى وصلت أخيراً إلى المنزل الريفي الذي بدا اكبر مما تذكره.

كان المنزل يطل على القرية التي مرت بها وعلى النهر الصغير الذي يشق طريقه في السهل المترامي متدفق المياه متلألئاً بفعل أشعة الشمس الذهبية.

كان سطحه القرميدي الاحمر قد اضحى أخضر اللون من جراء الايام التي تعاملت عليه، أما جدرانه فكانت من الحجر الرمادي ونوافذه وابوابه الخضراء كانت تبدو شاحبة بعد ان تآزر الطقس الرديء مع الريح عليه محولاً شموخه إلى ذل، وحديقته الغناء إلى اعشاب ضارة خطرة.

خرجت سالي ببطء من السيارة وهي تحس بالهواء البارد يلفح وجهها ورائحة السهل العطرة تعبق في كل كيانها. وعندما حاولت ان تتذكر تاريخ وفاة عمتها ادركت أن ذلك حدث منذ ثلاث

سنوات وهي منذ ذلك الوقت لم تقم بشيء في سبيل إصلاحه مع أنها كانت تنوي المجيء إليه مراراً، لكن الأيام مرت كلمح البصر.

كانت بوابة الحديقة مفتوحة، تكاد تهوي لولا المسامير التي ما زالت تثبتها في مكانها، أما أشواك الورود القديمة فعلقت بسروالها الفضفاض وهي تتقدم في الممر متجهة إلى الباب الامامي الذي وضعت فيه المفتاح بسهولة في القفل دون ان ينفتح مع انها دفعته بقوة، فحاولت تجربة المفتاحين الآخرين اللذين تحملهما بالباب الخلفي الذي سرعان ما فتح.

كان الدخول من الباب الخلفي أمراً مرعباً فالغبار ينتشر في كل زاوية ورائحة العفن تفوح بقوة، أما أثاث المنزل فما زال حيث تركته عمتها حتى كادت تشعر بعمتها تناديها بصوت مرح وهي ترتدي ملابس الخروج، عندما فتحت سالي إحدى النوافذ، ودت لو أنها اعتنت به قبل الآن، فالحشرات التي تملأ المكان جعلتها تشعر بالاشمئزاز والقرف، لكن لا سبيل إلى العيش في مكان آخر. فهل ستستطيع وهي على هذه الحال من إيجاد مكان آخر.

وجدت صعوبة في فتح الباب الأمامي العالق لكنها بعد جهد جهيد استطاعت أن تزحزحه بذراعها السليمة لتتسلل بعد ذلك اشعة الشمس البهية.

بدا الوادي يخلب الألباب بألوانه الساحرة وقد تساقطت عليه اشعة الشمس ذهبية متلألئة، وقد بعث هذا المشهد الراحة إلى نفسها، لذا اتخذت قراراً بعدم بيع هذا المنزل لأنها لو باعته لوجب عليها البحث عن مكان آخر ولن تجد مكاناً أناى من هذا المكان ابداً.

في هذا الوقت خرجت لتقود سيارتها إلى الباحة الخلفية حيث الزريبة القديمة التي كانت تستخدمها عمتها كمرآب لسيارتها، وكم

كانت مفاجأتها كبيرة عندما وجدت سيارة عمتها القديمة العاجية اللون، فاقتربت منها وهي تستدير حولها بفرح وغبطة وقد عادت اليها الذكريات القديمة يوم كانت طفلة صغيرة تمرح في أرجاء هذا المكان.

كانت هذه السيارة أثرية جداً تساوي ثروة. ومع ان كل ما حولها بدا مغبراً إلا أنها بقيت نظيفة وكأن هناك من يهتم بتنظيفها، عندما طرأت عليها هذه الفكرة تملكها الخوف قليلاً فأسرعت إلى حيث الشمس ساطعة حيث خف وطء الفكرة عن نفسها، فربما تركت عمتها تعليمات للاعتناء بالسيارة.

بدت غرفة الجلوس أفضل حالاً من سائر غرف البيت لذا وضعت أغراضها كلها فيها، ثم جلست على أريكة قديمة لتستريح، لو كانت في حالتها العادية لشرعت تنظف المكان لكنها الآن مرهقة لذا لن تستطع فعل أي شيء قبل الغد.

بعد ساعة تقريبا، استفاقت سالي من غفوة سريعة. وكانت الشمس أغربت، فأصبح الهواء أكثر برودة. فارتجفت قليلا ووقفت لتقفل الباب الأمامي. . لقد عمّ الظلام في الخارج أيضاً. وحاولت الضغط على زر الاضاءة، ولكن لم يحدث شيء. لابد ان «اللمبة» محروقة. ولكن الأنوار لم تشتعل لا هنا ولا في اي مكان آخر من المنزل، وهذا أمر طبيعي لأن الكهرباء مقطوعة عن المنزل منذ سنوات، وعندما حاولت فتح حنفية المياه وجدت انها لم تأت ساكن. لذا لعنت غباءها الذي جعلها لا تفكر بالوضع الذي هو عليه هذا البيت. فلو فكرت قليلاً لاتصلت بمحامي عمتها الذي كان سيهيء لها وضعاً ملائماً.

هنا تملكها اليأس القاتل فانفجرت بالبكاء حتى كادت تنهار لكنها خنقت ضعفها هذا وأصرت على تحدي القدر، فأسرعت

تبحث عن الشمع الذي وجدت منه حزمة كاملة في خزانة الحائط مع شمعدان جميل. أما الكبريت فكان موجوداً معها في حقيبتها، اضاءت الكثير من الشموع ووضعتها حول غرفة الجلوس لمنع الظلال.

بعد ذلك نظفت طاولة صغيرة، ثم فتحت كيس الطعام الذي اشترته قبل وقت خلال النهار، وراحت تتناول طعامها وهي تفكر بلائحة كاملة مما يجب ان تقوم به في الغد، فجأة سمعت صوتاً خفيفاً منبعثاً من الجهة الخلفية للمنزل جعلها تجفل خائفة لكنها عادت فهدأت روعها وهي تعتقد أن الصوت مصدره الفئران المنتشرة هنا وهناك وهذا أمر طبيعي في منزل مهجور كهذا، لكن ألمها النفسي وابتعادها عن دوغلاس جعلها تفقد المنطق السليم الذي كان سيرشدها إلى هذا الوضع المزري الذي وجدت نفسها فيه، فهي في غمرة حزنها ظنت أنها ستجد هذا المنزل كما عهدته سابقاً، دافئاً، هادئاً فيه السعادة الوادعة، لكن كيف ذلك وعمتها التي هي مصدر الدفء والسعادة قد توفاها الله.

انفتح الباب فجأة بقوة، وهجم رجل إلى الغرفة ضخم الجثة كث اللحية ويحمل بيده بندقية ووجهها رأساً إلى سالي. فصرخت برعب صاعق وقفزت واقفة، موقعة الطاولة على الأرض.

لقد تصورته رجلاً ينوي اغتصابها لذا صرخت بقوة مذعورة، فهي تخشى أكثر من أي شيء آخر أن يكتشف أنها لا تملك سوى ثدي واحد، وتراجعت نحو المدفأة وأمسكت ملقط النار الحديدي بيدها اليمنى، بينما التفت ذراعها الأخرى حول صدرها وكأنها تحميه.

ـ اخرج من هنا! (صرخت برعب).

لكن ذلك الرجل الذي بدا دهشاً إلى اقصى حد أخذ يحدق

اليها وصوته يبعث الخوف إلى قلبها.

ـ ماذا تظنين نفسك فاعلة هنا؟

ـ اخرج من هنا! وإلا سأستدعي الشرطة!

تقدم منها خطوة، ولكنها صاحت وهي تهز الملقط برعب:

ـ لا تقترب مني.

ـ حسنا.. انظري، سأضع البندقية جانباً على ان تخبريني ماذا تفعلين في منزل الآنسة برايس؟

ـ ولكنني أنا الانسة برا...

لكنها تراجعت عن الكلام عندما أدركت انه يقصد عمتها. كانت لكنة هذا الرجل تشبه لكنة اهالي السكان المحليين.

ـ أنا سالي برايس.. ومن تعنيها هي عمتي.. ومن انت؟

صاح بدهشة:

ـ وأخيراً قدمت لرؤية المكان؟ لقد حان الوقت.. اسمي كلايتون روجر كلايتون. وانا املك المزرعة الواقعة قبل هذا المنزل على الطريق، فعندما شاهدت الأنوار هنا أتيت لألقي نظرة، وانا أحسب أن متسولاً او لصاً قد اقتحم المنزل.

ـ اوه، اوه.. فهمت.

وضعت الملقط من يدها، ثم دنت منه لتتأمله عن قرب حيث بدا أصغر مما اظهرته هذه اللحية الكثة، فهو على ما يبدو في العقد الرابع من عمره يرتدي ثياب مزارع.. وعندما حاولت أن تتصوره أصغر من عمره بعشر سنوات مبعدة هذه اللحية من عقلها تذكرت شاباً مرحاً كان يعتني بالحديقة والسيارة.. كما تذكرت طفلاً لابد ان يكون في سن المراهقة الآن.

نظر إلى حقائبها الموضوعة على الأرض، ثم سألها باستخفاف:

ـ هل جئت لقضاء العطلة هنا؟

- لا. . لقد أتيت لأعيش هنا.

أخذ روجر كلايتون ينظر إليها، وهو يلوي فمه وكأنه لا يصدق. . ثم اقتربت سالي اكثر من نور الشموع فلاحظ شحوبها والدوائر السوداء حول عينيها، فقطب جبينه ثم أشار برأسه إلى ذراعها الذي كان لا يزال يلف صدرها.

- هل جرحت نفسك؟

- اوه. . اوه. . اجل. . لقد اصيبت ذراعي. ولكنني طببتها.

- أتنوين البقاء هنا. . والبيت على هذه الحال؟

- أجل. . ليس. . ليس لدي مكان آخر أذهب اليه.

اخذ يتأملها دون ان يفهم قولها لكنه كأهل هذه المنطقة ابتعد عن المزيد من الاسئلة، واكتفى بأن قال :

- ستحتاجين لبعض الماء إذاً. سأذهب لأؤمنه لك.

وخرج إلى الباحة الخارجية الخلفية ليرفع حفرة مغطاة، ثم ليفتح صنبور الماء، وبعد الكثير من الكركرة في الصنابير الداخلية خرج الماء من صنبور مغسلة المطبخ.

قالت سالي وهي تشعر بالامتنان :

- اوه. . شكراً لك. . أتعرف كيف توصل لي الكهرباء أيضاً؟

- يجب ان تحضري موظفي مصلحة الكهرباء لأجل هذا، ولكن إذا أحببت أتصل بهم في الصباح الباكر لأطلب منهم ذلك.

- أرجوك أن تفعل.

وكان قد لحق بها إلى غرفة الجلوس :

- هل أنت من ينظف السيارة؟

هز رأسه إيجاباً :

- لقد ارسلت اليك عبر محاميك رغبتي في شراء السيارة والمنزل.

- وهل فعلت هذا؟

عندما سألت هذا السؤال تذكرت أنها قد اعلمت بذاك الموضوع عندما كانت في أمريكا، لكن كثرة أعمالها جعلتها تنسى ذاك الموضوع برمته.

- ما زلت راغباً في شرائهما منك. . إذا كنت بحاجة إلى المال أستطيع أن أقرضك المال مقدما على الحساب. . .

- لست في عوز.

- لكنك قلت أن لا مكان آخر لك.

- هذا لا يعني انني في عوز أو فقر.

- آه فهمت. . أرجوك ان تعذريني.

- لا. . أنا الأسفة، انا اقدر عرضك هذا لكن ألا يمكن مناقشة هذا الموضوع غداً؟ لقد كان يومي متعباً، واقتحامك المفاجيء للمنزل أرهق أعصابي.

التقط كلايتون بندقيته، وهو يبتسم :

- أتمنى لك ليلة سعيدة إذاً.

عندما خرج مدّت الاريكة سريرا لها ثم استلقت عليها، فبعد أن خافت من وحشة المكان اصبحت الآن مطمئنة لوجود كلايتون وزوجته قريباً منها.

كان النوم على هذه الأريكة مزعجاً للغاية اذ لم تسمح لها بالنوم الهنيء فقد استفاقت باكرا، ثم ذهبت إلى المطبخ ما ان بزغ الفجر لتغتسل قدر الإمكان بالماء البارد، وعندما تذكرت كلايتون الذي ستقابله وضعت الثدي الاصطناعي لئلا يلاحظ مصابها، لكنها مع ذلك ارتدت كنزة واسعة وسترة طويلة فوقها، ثم جلست لتكتب لائحة بالأشياء التي ستقوم بها اليوم. كان عليها في البداية تنظيف البيت ومن ثمّ تجفيفه من الرطوبة بواسطة إشعال الحطب الذي

www.elromancia.com

أحضرته من مكانه المعتاد خلف المنزل، لكن ذلك العمل استغرقها مدة طويلة لأنها لم تستطع حمل إلا القليل من الحطبات في كل مرة. وبعد جهد جهيد استطاعت إشعال النار وكان كلايتون قد دخل في تلك الاثناء وبينما هي غارقة في السعال الذي سببه الدخان المندفع من المدخنة.

ـ الأفضل تنظيف المدخنة أولاً.

قال كلماته تلك ثم راح يطفىء النار المشتعلة.

ـ سأضيف هذا إلى لائحة اعمالي.

ـ لا حاجة لهذا. . هناك رجل في القرية يقوم بهذا العمل.

التقط اللائحة التي كتبتها :

ـ أستطيع استخدام الهاتف لأنجز لك الكثير من هذه. . كما انك لن تحتاجي إلا إلى القليل من الوقود من أجل التدفئة المركزية التي جهزت عمتك البيت بها.

ـ هذا لطف كبير منك سيد كلايتون. . بالنسبة لسيارة عمتي. . .

نظر اليها بفضول :

ـ أجل. . ؟

ـ أريدك ان تأخذ هذه السيارة التي لا أعرف سبب احتفاظ عمتي بها، فلولا عنايتك بها كل هذه المدة لغدت كماً مهملاً.

لكنه هز رأسه معترضاً :

ـ اشكرك على لطفك هذا لكنني لن اقبلها يا آنستي.

قطبت سالي وقد رأت نفسها أمام حائط مسدود في نقاشها معه. لكن عندما بدرت لها فكرة قالت له :

ـ في هذه الحالة. . سأبيعها لك.

ـ بكم؟ يجب أن تطلبي سعراً منصفاً.

ـ لن أبيعها نقدياً بل ستكون لك مقابل إعادتك هذا البيت إلى حالته الطبيعية.

ـ لكن هذا لا يصح.

ـ بلى ان ذلك يناسبني. ضع سعراً مناسبا للسيارة، ثم قدّر كلفة مساعدتك لي بالساعة.

نظر اليها للحظات متأملاً بعد أن شاهدها الآن عن كثب في وضح النهار، ثم اتسع فمه بابتسامة عريضة وهز رأسه.

ـ حسناً، سيبرم الاتفاق على هذا الاساس.

ـ أتذكر أن زوجتك كانت تعتني بالمنزل لعمتي، فهل تظن ان بإمكانها مساعدتي أيضاً في تنظيفه؟

فأجابها بحزن :

ـ لقد ماتت زوجتي.

سألته بحدة دون أن تدري ما تقول :

ـ وهل ماتت من السرطان؟

ـ لا. . إنه حادث مركب، أودى بحياتها وبحياة ابني.

ـ وابنك أيضاً؟ اوه. . كم أنا آسفة. . هل كان هذا. . مؤخراً.

ـ لا. . منذ سنوات طويلة. . لكنني أستطيع ان اطلب امرأة من القرية لتساعدك إلى ان تصبح ذراعك أفضل حالاً.

كان على وشك قول شيء آخر، إلا ان صوت سيارة تقترب جعله ينظر عبر النافذة.

ـ هذا هو ساعي البريد الذي لم يزرني منذ زمن بعيد.

وقفت سيارة البريد الحمراء في الخارج فخرجت سالي لتستلم رسالتين ادهشها وصولهما بهذه السرعة، لكنها عادت فتذكرت ان رحلتها من لندن إلى هذا المكان المهجور قد استغرقت مدة طويلة.

كانت الرسالة الاولى من محاميها اما الثانية التي حوكت عبر

مكتب البريد فكانت تحمل طابع نيوزيلندا، وعندما انتبهت إلى أن كلايتون يخاطبها ادارت إليه وجهاً فقد وميضه كله.

- آسفة.. ماذا كنت تقول؟

عندما رأى وجهها الشاحب والطريقة التي أمسكت بها الرسالة غيّر رأيه ليقول :

- سأفعل ما أستطيع باللائحة وسأطلعك على ما يتم فيما بعد.

- أجل.. شكراً لك...

ما كاد يخرج من الباب حتى فتحت رسالة دوغلاس التي كانت ملأى بعبارات الحب والاشتياق وهي رسالة كتبها إثر شجارهما تلك الليلة، تتضمن اعتذاراً وندماً وكلمات حب وشوق. وقد بدا لها أنه كتبها ما ان وضع الهاتف من يده، مرفقة بألم وبهجة وبكلمات حب رقيقة غرزت في نفسها كل كلمة منها خنجراً عميقاً، ضمت الرسالة إلى قلبها وكأنها تحمل كنز سيبقى معها طوال حياتها.

مضى وقت طويل قبل أن تضع الرسالة في حقيبتها لتفتح بعد ذلك رسالة المحامي التي أرفقت برسالتين إحداهما من وكيل العقارات الذي اخبرها ان الشقة قد اجرت، والاخرى رسالة موجهة من فيليسا التي دستها تحت الباب وهي تطلب بإصرار ان تعرف ما أصابها على ان تتصل بها في أقرب فرصة.

احست سالي بالذنب لأنها لم تخبر صديقتها عن رحيلها المفاجيء، لذا كتبت لها رسالة تخبرها فيها انها قد اضطرت إلى السفر، لكنها بعد تردد قصير كتبت عنوان محاميها على الرسالة لا عنوان المنزل الريفي، ثم ختمت رسالتها بقولها : سأزور لندن من وقت لآخر حيث سأراك.

بعد الظهر توجهت سالي إلى أقرب بلدة لتتبضع، وهناك أرسلت رسالتها بالبريد، ثم عادت لتبدأ حياتها الجديدة.

بعد ثلاثة اسابيع من العمل الشاق، عاد المنزل مكاناً صالحاً للسكن، كانت قد أصلحت كل اماكن النش فيه، كما جففت الغرف التي اعيد ديكورها من جديد، ورمت فرش الاسرة والسجادات الرطبة لتضع مكانها ما هو جديد، وقد تم كل ذلك بمساعدة روجر كلايتون الذي راحت تناديه كما يناديه القرويون باسم «روج».

زارتها سيارة البريد عدة مرات خلال هذه الفترة، لكنها في أحد الايام سلمتها رسالة أخرى من دوغلاس عليها طابع انكليزي كان قد أرسلها إليها محاميها. أما تاريخها فيعود إلى ثلاثة ايام خلت وهو يقول فيها :

«أنت مدينة لي بالتفسير.. فإذا لم تكن لديك الشجاعة الكافية للاتصال بي او لزيارتي في شقتي فسأنتظرك في مقهى «باخوس» بين الحادية عشرة والنصف والثانية من كل يوم حتى الرابع عشر من تشرين الثاني.. «دوغلاس».

عصفت بها مشاعرها العطشى إلى حبه وحنانه، مرفقة بغضب جامح، فأنّى له مطالبة هذا الجسد المشوّه بما يعجز عن الحصول عليه ثانية.

نحّت الرسالة بعيداً وهي تطلب من نفسها نسيانه، لكن التفكير بأنه سينتظرها كل يوم أجّج شوقها وحنينها إليه فقررت ان تراه مرة أخرى على ان تكون الاخيرة، وسيكون الاسبوع القادم مناسبا لأن عليها مقابلة الأخصائي.

وصلت سالي إلى لندن قبل موعدها بيوم أمضته في فندق يقع قرب محطة القطارات. لكنها لم تذهب لترى دوغلاس لأنها وصلت متأخرة قليلاً لذا ورغم شوقها إلى لقائه أجّلت رؤيته حتى الغد.

اتصلت بصديقتها فيليسا التي كانت على وشك الخروج فاتفقت معها على أن تزورها عند العشاء.

احساسها بأن دوغلاس، رغم اتساع هذه المدينة، قريب منها جعلها تقضي الليل في أرق وسهاد.

في اليوم التالي ذهبت إلى المستشفى لتقابل الأخصائي الذي قال لها إنها أصبحت على ما يرام، جسديا، لكنه قطب عندما رأى نحولها ونصحها بزيارة طبيب نفساني، لكن سالي هزت رأسها رافضة بعناد.

عندما غادرت المستشفى، ركبت سالي الباص إلى ضاحية «كينغزستون» حيث قال دوغلاس إنه سوف ينتظرها في احد المقاهي، وهو مقهى قريب من منزلها، يقدم وجبات سريعة إضافة إلى المشروبات، بعد وصولها بفترة وجيزة جلست على طاولة قريبة من النافذة تشرف على المقهى كله بحيث ترى الجميع دون أن يشاهدها أحد بسهولة. وكان طعامها الذي طلبته ما زال حيث هو لم تمسه إطلاقاً إذ كانت تنتظر وصول دوغلاس متوترة قلقة، وعندما اصبحت الثانية عشرة والنصف رأته يسير في الشارع وهو يرتدي معطفا مربوطاً بحزام دون أن يعتمر قبعة المعطف التي ستقيه المطر الذي بدأ بالانهمار، بدا لها اكثر نحولاً مما عهدته، عيناه تنتقلان بين وجوه المارة بإلحاح.

عندما وصل إلى باب المقهى توقف قليلاً ثم دخل مختارا طاولة قريبة من الباب تسمح له بمراقبة المارة جميعهم فعلمت انها لن تستطيع الخروج قبل أن يخرج هو. اخذت تراقبه عن بعد وعواطفها تتأجج اشتياقاً اليه.

كانت الساعة والنصف التي تلت جحيما بالنسبة إليها قضتها وهي تقاوم رغبتها الجامحة التي تريدها ان ترمي نفسها بين ذراعيه

لتنسى ألمها كله. ذلك الوقت كانت على استعداد تام للتخلي عن كل شيء مقابل أن تشعر بذراعيه.

تأخر دوغلاس في الخروج ربع ساعة عن موعده، كان وجهه قاسياً ومتجهماً عندما نادى سيارة أجرة. بعد أن تيقنت من رحيله استقلت هي أيضاً سيارة اجرة قاصدة الفندق حيث أوت إلى غرفتها لتستسلم إلى حزنها وبكائها.

في السابعة مساء، أجبرت نفسها على الاستحمام وغيرت ثيابها، وفي الثامنة استقلت سيارة أوصلتها إلى حيث تقيم فيليسا، التي صاحت بذعر عندما شاهدتها :

ـ يا الهي. . ! ماذا حدث لك؟ منظرك مخيف !

ـ شكراً لك.

خلعت سالي المعطف الطويل الذي كانت ترتديه فوق كنزتها الواسعة وكانت قد بدت فيه رغم ارادتها نحيلة طويلة بل انيقة أيضاً. أما المساحيق التي وضعتها على وجهها فلم تخف آثار البكاء الذي حاولت ان تخفيه بواسطتها.

نظرت اليها فيليسا مقطبة :

ـ لقد خسرت كثيراً من وزنك، وتبدين منهكة حتى الموت، أستطيع ان افهم من ذلك انك لست على ما يرام مع ذاك الذي هربت معه.

ـ لكنني لم أخبرك في رسالتي شيئاً عن موضوع هروبي.

ـ صحيح لكن دوغلاس هو من أخبرني.

ـ دوغلاس؟ وهل جاء إلى هنا؟

ـ نعم، جاء يوماً وهو يزبد غاضباً، يطالبني بأن أرشده إلى مكانك وعندما أنكرت معرفتي بمكان وجودك عاملني بخشونة وقسوة، لذا اضطررت إلى ان اقرئه الرسالة التي أرسلتها، فكان ان

تركني ورحل.

- آسفة لأنك تعرضت إلى هذه المعاملة الفظة، فلم أتوقع مجيئه إلى هنا.

- لكنني حتى هذه اللحظة عاجزة عن فهم أسباب هجرك إياه، فقد بدوتما حبيبين حقيقين وكأنكما بطلا احدى القصص الغرامية الخرافية، فما الذي اصابكما؟

هزت سالي رأسها :

- المسألة كلها أنني لم استطع الاستمرار بهذه العلاقة، لذا أرجو ألا تناقشيني بهذا الموضوع ثانية. اما الآن فأريدك ان تقصي علي كل الاخبار والاشاعات الدائرة.

- حسنا، لكن عليّ الذهاب إلى المطعم أولاً لإحضار الاطعمة التي أوصيته عليها.

- هل أرافقك؟

- لا.. ابقي هنا.. تبدين تعبة.. سأحضر معطفي.

- خذي معطفي، فقد تحتاجين إلى قبعته التي ستقيك البرد القارص.

- حسناً، صبي فنجان قهوة أثناء غيابي.

تأخرت فيليسا في العودة، وعندما عادت أقفلت الباب وراءها بسرعة، ووضعت سلسلة الأمان.

- يا الهي.. سالي.. لن تحزري أبداً ما جرى لي لقد كان دوغلاس ينتظرني عندما خرجت من المطعم.

- ماذا؟ ولكن كيف؟

- لقد أمسك بي وادارني، ثم ناداني باسمك.

وضعت فيليسا كيس الطعام على الطاولة.

- يا الهي.. ما زلت أرتجف، كان وجهه كالعاصفة الهوجاء،

لكنه عندما شاهدني اصابه ذهول شديد.

وقفت سالي بسرعة وأمسكت بذراع فيليسا :

- ولكنني لا أفهم، لماذا يظن أنك أنا؟

- لقد فكرت بالأمر أثناء عودتي.. فتبين لي أنه قد وضع من يراقب شقتي وعلى ما يبدو أن هذا المراقب قد رآك فأبلغ دوغلاس الذي تبعني عندما خرجت لابسة ثيابك وهو يحسبني أنت.

- وعندما وصل دوغلاس..

- بدا لي متأهباً لشجار عنيف، لكنه اصيب بصدمة من جراء رؤيتي.

- وماذا حدث بعد ذلك.

- قلت له إنه مجنون ثم ركضت إلى المنزل عائدة.

حدقتا إلى بعضهما بعضاً. ثم قالت سالي بأمل ورعب :

- سيعتقد أن التحري قد أخطأ.

- قد يعتقد ذلك، لكنه قد يصل إلى الحقيقة أيضاً.

- لا يمكن ان يعتقد انك استعرت معطفي.

- لِمَ لا، أنسيت أننا كنا نتبادل الثياب دائماً؟ لن أفاجأ إذا كان ينتظرك في الخارج.

- اوه.. لا.. لا أستطيع رؤيته يا فيليسا.. لا أستطيع.

- حسناً، لا تقلقي، سنفكر بحلٍ ما.

ونظرت إلى ما اشترته من طعام.

- اظن من الافضل لو اننا...

قطع كلامهما رنين جرس الباب، نظرتا إلى بعضهما، فزعتين، إلى أن قالت فيليسا :

- سأفتح الباب لئلا يشك بأي شيء.

فهمست سالي مذعورة :

www.elromancia.com

- ابعديه يا سالي، أتوسل اليك ان تقنعيه بأنه مخطىء.

- قد أدخله مضطرة. انظري. . اخرجي من سلم الطوارىء إلى أن اتخلص منه. واياك ان تنسي حقيبتك.

وقفت سالي في الظلام، تضغط نفسها إلى الجدار. بينما صوت دوغلاس يتعالى من هنا وهناك فعلمت أنه قد تمكن من الدخول، اضيئت الانوار في غرفة نوم فيليسا، ثم في الحمام، ثم سمعت صوت فيليسا الغاضب.

- هل اكتفيت الآن؟ هل نلت ما تريد؟ لقد قلت لك إنني لم أشاهد سالي منذ أسابيع. . فهل لك الخروج الآن من بيتي لأنني أنتظر بعض الأصدقاء.

في هذه الاثناء تسلقت سالي سلم الطوارىء حتى وصلت إلى مكان استطاعت الاختباء فيه لأنها توقعت ان يفتش دوغلاس سلم الطوارىء وهذا ما حدث بالفعل فهي ما ان اختبأت حتى سمعت صوت النافذة وقد فتحت ثم اغلقت بعد ذلك على مضض. وبعد دقيقتين، خرجت فيليسا ونادتها بصوت منخفض :

- انتهى كل شيء. . لقد ذهب.

دخلت سالي بسرعة، وأقفلت فيليسا النافذة خلفها :

- لا بد أنك قد تجمدت في البرد.

كانت سالي مضطربة الأعصاب حتى أنها لم تحس بالبرد. وأسرعت فيليسا إلى الهاتف، فسألتها سالي :

- بمن ستتصلين.

- ببعض الفتيات، فدوغلاس لن يتخلى عن شكه، وسيبقى في انتظارك في الخارج، لذا سنربكه بوجود العديد من الفتيات.

وصلت اربعة من صديقاتهن العارضات اللاتي غضبن عندما علمن أن معجباً غير مرغوب فيه يزعج سالي بحصاره.

بقين بضع ساعات حيث أقمن حفلة بالمناسبة تبعها خدعة اثناء خروجهن اذ تبادلن ثياب بعضهن، بينما ارتدت سالي ملابس فيليسا معتمرة شعراً مستعاراً اشقر اللون سهل لها مهمة خروجها.

تركت هذه الحادثة في نفسها رعبا كبيراً فقد كاد دوغلاس يجدها رغم محاولاتها كلها، وعندما عادت إلى الفندق فكرت بما حدث متسائلة عن سبب وضع دوغلاس ذاك المراقب، لكنها بعد أن أمعنت التفكير تبين لها أن رسالتها التي أرسلتها إلى فيليسا والتي تخبرها فيها عن زيارتها لندن من وقت لآخر كانت سبب ما حدث. لكن أكان ذلك بسبب الحب أم الغضب من خيانتها؟

كانت ترغب كثيراً في مغادرة لندن على الفور، لكن موعدها مع المحامي جعلها تتريث قليلاً. كان المطر قد انحبس في السماء والشمس أشرقت من جديد، دون ان تقضي على الهواء البارد الذي يلف الجو، عندما استقلت سالي سيارة الاجرة إلى المبنى الذي يحتل المحامي فيه طابقاً كاملاً، واسرعت بالدخول. فنظر اليها موظف الاستقبال عند المدخل متسائلاً، فلفظت اسم المحامي ثم استقلت المصعد إلى الطابق الثاني، وهناك رفضت تناول القهوة، شارحة أن عليها اللحاق بالقطار بعد عشرين دقيقة أتمت فيها ما عليها من أعمال ثم خرجت من المكتب إلى حيث الشمس المشرقة، فحثت خطاها حتى وصلت إلى المفترق التالي باحثة عن سيارة أجرة تستقلها، لكنها عادت تسير دون أن تتوقف إلى ان لاحظت سيارة قد توقفت أمام المبنى الذي غادرته، فعادت ادراجها اليه وهي تلوّح لسائق السيارة التي خرج منها رجل وهو ينظر إلى المبنى قبل ان يلتفت لينظر إليها. . .

وتجمدا حيث هما وتوقف الزمن لحظات.

وجدت سالي نفسها تحدق مباشرة في عيني دوغلاس الغاضبتين !

٤ ـ أين المفر ؟

ـ سالي !

كانت الصدمة قد سمرتها في مكانها لكن نداءه أعادها إلى الوجود فاستدارت هاربة دون أن تعي شيئاً.

ـ انتظري !

لحقها راكضاً، لكن السائق الذي لم يدفع له أجرته ناداه صارخاً، فلم يكن بد من الرجوع اليه لينقده اجرته لكن هذه الثواني القليلات مكنتها من الهرب حيث استطاعت القفز إلى باص كان قد أقلع منذ لحظة.

كان قد شاهدها تقفز كالمجنونة قاطع التذاكر الذي أمسك بذراعها اليسرى ليمنعها من السقوط، مسبباً لها ألماً حاداً جعلها تشهق متلوية. فكان ان نهرها هذا الرجل قائلاً :

ـ انتبهي في المرة الثانية.

ـ آسفة. . شكرا لك.

التفتت إلى الوراء بسرعة، فرأت ان دوغلاس عاد راكضا إلى سيارة الأجرة دافعاً شخصاً آخر كان على وشك الصعود اليه، ثم حشر نفسه بسرعة في المقعد الخلفي مشيراً إلى السائق بلحاق الباص. .

آه؟ ما العمل الآن؟ فدوغلاس سيتمكن بسهولة من اتباع الباص الذي سيتوقف في المحطة الثانية، لكن الزحام الكثيف جعل الباص يقطع أضواء إشارات السير قبل ان يطفىء اللون الاخضر في حين أن التاكسي بقي بانتظار اشارة المرور.

استدارت سالي إلى قاطع التذاكر لتنقده الأجرة فسألته :

ـ ارجوك. . اين يصل هذا الباص؟

ـ إلى ملتقى شارع «هارود» حيث «الهايدبارك».

علمت أن التاكسي لن يتأخر قبل أن يلحق الباص لذا عليها التصرف بسرعة. كان الباص يسير مسرعاً دون توقف وكانت تقف عند الباب متحينة الفرصة المناسبة، لكنها عندما نظرت من النافذة الخلفية رأت العديد من سيارات الأجرة السوداء اللون التي برزت من بينها سيارة تجتاز السيارات جميعها، باتجاه الباص. اقترب بضعة اشخاص من الباب استعداداً للنزول عند المحطة الثانية فكان ان خبأت نفسها بينهم حتى إذا ما اقترب الباص من المفرق قفزت منه دون ان تنتظر توقفه، ثم راحت تعدو حتى تدخل مخزن بيع كبير، لكنها بدل أن تدخل إلى المخزن استدارت يساراً نحو مدخل آخر أوصلها خارج محطة مترو تحت الارض. وبعد أن نظرت برعب حولها، سارعت للنزول، مخبئة نفسها بين جموع الناس المنتظرين على رصيف المحطة، إلى ان وصل القطار بعد دقائق. فدخلت، ثم جلست على مقعد، وبدا لها أن الوقت قد طال كثيراً قبل ان تقفل الابواب. . ولم يخبُ تأثرها الا بعد أن سار القطار مسافة قصيرة، لأنها عندئذ ايقنت من ان دوغلاس قد أضاع اثرها.

سافرت سالي من قطار إلى قطار وكأنها مجرمة هاربة من وجه العدالة لكن لم يكن أمامها غير هذا السبيل لأن القطار الذي استقلته كان يختلف عن ذاك القطار السريع الذي كان عليها ركوبه.

نامت في القطار قليلاً، بعد إحساسها بالدوار، من جراء الصدمات التي مرت عليها في اليومين الماضيين، وكم حمدت ربها عندما وصلت إلى بيتها الريفي قبيل منتصف الليل حيث أخذت تتجول من غرفة إلى غرفة لتضيء أنوارها وتقفل ستائرها لئلا ترى

الظلام في الخارج. كان البيت دافئاً بفعل التدفئة المركزية لكن رائحة الدهان والسجاد الجديد عبقت في الغرفة قليلاً.

ركعت أمام المدفأة لتشعل الحطب فيها، ثم جلست فوق سجادة صغيرة امامها لتراقب ألسنة النار المرتفعة. كانت الأحداث التي مرت بها خلال اليومين الماضيين غير قليلة ابداً، فراحت تستذكرها جميعاً إلى ان وصلت إلى نظرة دوغلاس الغاضبة التي حدجها بها. لقد تعمدت إغضابه لينساها دون أن يتألم، لكنها بعد ان رأته تبين لها انه ليس من الذين ينسون حبهم بسهولة. ارتجفت رغم الدفء الذي غمر الغرفة متسائلة عن الوقت الذي سيمضي قبل أن يستسلم؟

كان الشتاء طويلاً. في تلك البراري. تساقط فيه الثلج باكراً في كانون الثاني وبقي هناك إلى آذار. وفي أحد الشهور ذهبت سالي لتشتري بعض الكتب والشرائط المسجلة إضافة إلى مؤنها خلال هذا الشتاء الطويل عمدت سالي إلى الخياطة التي علمتها إياها عمتها في ما مضى، فكان أن أنهت أشغال عمتها أولاً ثم انتقلت بعد ذلك إلى لوحاتها التي أبعدت عنها الضجر في الأمسيات الطويلة.

أما بالنسبة للخبز فكانت تعده بنفسها، لكنها أحياناً كانت تشق طريقها في الثلج إلى دكان صغير في القرية حيث تشتري الحليب والخضار الطازجين، وكان روجر كلايتون والسيدة ردهوت التي ساعدتها في تنظيف المنزل، هما الوحيدان اللذان تراهما دائماً. وفي عيد الميلاد دعتها السيدة ردهوت لتنضم إلى عائلتها لقضاء العيد، لأن تلك المرأة انزعجت من بقاء فتاة شابة مثل سالي ليلة العيد وحيدة. وكان روجر كلايتون مدعواً أيضاً. وبدا أنه كان يحضر إلى هناك كل عيد ميلاد. . . لأنه كان أيضاً وحيداً.

تمتعت سالي بذلك اليوم، إذ كان من المستحيل ان تبقى كئيبة وهي في منزل امرأة خفيفة الظل كالسيدة ردهوت التي صممت على عدم ترك سالي وحيدة للحظة واحدة، وكانت هي وروجر قد شاركا العائلة الكبيرة العابها. في نهاية اليوم شرب الجميع شراب «البنش» الساخن ثم تبعه ترانيم الميلاد التي أنشدوها وهم يطوفون حول الشجرة المزدانة.

بعد الاحتفال، سار روجر معها إلى منزلها فوق التل، ويداهما في جيوبهما، وعندما وصلا إلى المنزل رفع رأسه، وكأنه يشم الريح :

ـ سيهطل الثلج قريباً.

ـ هل تدخل لتناول القهوة؟

فهز رأسه قائلاً :

ـ لا. . شكراً.

حدّق اليها متسائلاً وقد بدا غير مستعجل للذهاب :

ـ هل تمتعت اليوم؟

ـ أجل. . لقد كان يوماً مرحاً.

ـ عليك الخروج دائماً. انت شابة صغيرة فكيف تعتزلين الحياة هكذا؟

لم تجد سالي شيئاً تقوله، فتابع بعفوية :

ـ ليت باستطاعتي ضرب ذاك الرجل الذي آذاك.

حدقت إليه دهشة من كلماته العنيفة الشرسة متعجبة من استنتاجه الخاطىء. فقالت بسرعة :

ـ لم يكن من آذاني رجل.

لكنه لم يصدقها، بل قال :

ـ ومن سيقودك إلى هجر الحياة والعيش في بؤس غير رجل

نذل؟ لم أرَ قط امرأة أكثر تعاسة منك، هل كان زوجك؟ هل انت متزوجة؟

ـ لا.

الدهشة في صوتها أقنعته، فهز رأسه :

ـ حسنا. . لم أقصد التطفل. ربما من الأفضل النسيان. وتمتعك الليلة يبرهن أنك قد تغلبت على ما حدث.

تركها بعد أن تأكد من دخولها إلى المنزل. وعندما استلقت سالي في الفراش تلك الليلة، أخذت تتساءل عما إذا كانت حقيقة قد استطاعت التغلب على ما حدث. . . ربما استطاعت جسدياً التغلب، أما نفسياً فلا، لأن الحنين إلى دوغلاس ما زال هو هو، فهي تشتاق إلى لمساته الحبيبة وإلى عينيه الدافئتين، وغالباً ما تساءلت : أنسيها الآن؟ هل قابل فتاة اخرى أنسته سالي التي ارادها زوجة؟

هذه الشهور الشتوية، أعطت سالي الراحة التي كانت تحتاجها كما أعطتها وقتاً لتقبل واقعها المرير. لكنها مع ذلك بقيت عاجزة عن النظر إلى نفسها في المرآة، ولم تكتف بذلك بل عمدت إلى ارتداء السترات الواسعة التي تخفي معالم جسدها كلها، أما ذراعها فلم تعد تؤلمها إلا إذا قامت بأعمال كثيرة. لكن عدوها الرئيسي كانت وحدتها القاتلة، التي لم تستطع التخلص منها فحتى الحانة الموجودة في القرية عجزت عن الذهاب إليها لأن أهل القرية يعتبرون دخول امرأة غير اخلاقي، فالمرة اليتيمة التي ذهبت فيها إليها برفقة روجر جعلتها تشعر بالانزعاج بسبب النظرات الفضولية المتسائلة وقد تعجبت من هذا القانون الأخلاقي الذي يسمح لرجل بمساعدة امرأة وحيدة في بيتها لكنه يرفض ان تقضي سهرة معه وسط مئات العيون. أزعجتها هذه التصرفات البائدة في البداية،

لكنها رأت ان الافضل لها التأقلم مع عادات الناس هنا لتعيش براحة واطمئنان.

اخذت تعتمد أكثر فأكثر على نفسها قانعة بما تحصل عليه. كان هناك لوحة من شغل الإبرة على الحائط في غرفة الجلوس، مصنوعة بيد طفلة في التاسعة من عمرها منذ العهد «الفيكتوري»، ولكي تمضي الوقت حاولت سالي نسخها، ومع الوقت اصبحت مستغرقة فيها بعد ان لاحظت كم هو التصميم معقد والقطب متنوعة الشكل، وعندما أنهتها، لاحظت أنها قد سرّت بعملها، وباشرت على الفور بتصميم لوحة اخرى. وهي تفكر ببيعها. ثم فكرت بجمع بعض اللوحات المختارة لنسجها وبيعها في ما بعد.

كانت تشعر لأول مرة منذ اعتزالها الحياة بالاندفاع والحماس وقد ادهشها هذا الشعور، لأنها ظنت انها لن تهتم بأي شيء بعد الآن وانها ستبقى بليدة الحس طوال حياتها الباقية. . وبما انها كانت قد حددت موعداً لرؤية أخصائي في مدينة «يورك» بدل لندن، فقد ذهبت إلى هناك في شهر شباط، وامضت يومها وهي تزور محلات بيع أشغال الإبرة، لتعرف ما هي اللوحات المرغوبة اكثر. كانت فكرة بيع اشغال الابرة تشغل حيزاً كبيراً من اهتمامها. لذلك تحدثت إلى صاحبة احد المحلات عن اللوحات التي تنسجها فوعدتها تلك المرأة برؤيتها عندما تحضرها في المرة القادمة.

تحمست إلى هذه الفكرة كثيراً، فذهبت إلى منزلها، وامضت الأسابيع التالية في تطوير فكرتها، دون ان تشعر بمضي الشتاء الذي ولى كما ولى الثلج عن المرتفعات والجبال ليفتح الباب امام الربيع المزهر بهوائه اللطيف الذي دفع قطعان الغنم والخراف إلى الانتشار في المراعي الخضراء وهن يملأن بثغائهن المراعي التي فقدت منظرها الموحش بعد ان نما العشب من جديد مزهراً شاقاً طريقه إلى حياة

جديدة. تأملت سالي هذا التجدد وهي تتمنى لو ان الحياة كهذه الطبيعة المتجددة، فالربيع الذي طرق كل باب لم يطرق بابها، فالحزن ما زال ثقيلاً في قلبها الذي ما زال يملأ نفسها إحباطاً ووحدة.

تقدمت من الباب في احد الايام، لتشاهد روجر يصعد التل نحوها، بخطوات المزارع الثابتة. بدا لها مختلفاً، ولاحظت على الفور أنه تخلى عن معطفه الشوي السميك، وعن لحيته الكثة التي بدا من دونها أصغر سناً. وكانت ملاحظتها التي قالتها بعفوية عن عمره قد أسعدته.

كان قد عمل عملاً شاقاً في المنزل الريفي، فهو زارها كل يوم خلال الفترة الماضية ليتفقدها. ولم ترغب سالي ان تستغل طيبته، واستمرت تسأله متى سيتمم ثمن السيارة من عمله، إلى ان انزعج منها وطلب منها ان تنسى الأمر إلى ان يقول هو بنفسه. ولكنها كانت تعلم أنه لن يفعل. لكنها رغم تعاستها لاحظت إعجابه بها مع العلم ان بينهما هوة كبيرة قدرها عشرون سنة، أملت ان تدفعه إلى التراجع.

عندما وصل روجر إلى الباب قال :

ـ هل استقريت على رأي بشأن الحديقة؟

ـ لم أفكر بالأمر.

ـ لقد كانت هذه حديقة رائعة في عهد عمتك، ويجب عليك أن تعيديها إلى سابق عهدها.

ـ ربما سأزرع بعض الخضار في تلك الزاوية المسقوفة.

وقف روجر وسط ما كان قديماً بقعة خضراء، واخذ يتأمل ما حوله.

ـ سأجلب منجلاً معي بعد الظهر لأبدأ بالعمل، في هذه الأثناء

فكري كيف تريدينها.

ـ لكنني لا أعرف شيئاً عن الحدائق.

ـ اذن هذه فرصة سانحة لتتعلمي. سأجلب لك بضع كتب تدرسينها، وعندما يقر رأيك سأذهب بواسطة السيارة إلى مركز الحدائق لأشتري بعض الغرسات.

ـ آه. . انت مصمم حدائق إذاً.

لم ينتبه روجر إلى لهجة سالي الساخرة المداعبة، لكنهما ما كانا يوماً على مستوى الفهم نفسه، رغم تفاهمهما على كثير من الأشياء الأساسية.

تباحثا بشأن الحديقة فترة طويلة اخبرها خلالها كيف كانت عمتها تستلقي فوق عشب الحديقة ومساكب الزهور، سارا إلى فناء البيت الخلفي ولاحظت سالي بعض الناس في المراعي فأشارت اليهم :

ـ انظر. .

وضع يده فوق جبينه لتقيه نور الشمس، ثم قال :

ـ يبدو انهم عابرو سبيل. . يأتي الينا الكثير منهم هنا، معظمهم من الشرق، وهم دائماً يقرعون الابواب ليستأذنوا اهلها في نصب خيمهم في الحقل، او ليحصلوا على غرفة نوم مع فطور، كانت عمتك تدخل بعضهم أحياناً، فلا تدهشي إذا دقوا بابك، انما إياك ان تدخليهم.

كان في كلامه نبرة تحذير جعلتها تنظر اليه بسرور ضمني.

ـ قد يبهجني وجود بعض الرفاق.

ـ إذا أردت رفقة، فعليك دعوة صديق ليبقى معك.

عندما انتبه إلى مزاحها تبسّم قائلاً :

ـ أليس لديك اصدقاء. . أقصد صديقات؟

www.elromancia.com

- اجل.. بالطبع.

بعد ان ذهب، اخذت تفكر باقتراحه.. فمن المبهج ان ترافقها فتاة في مثل عمرها. لكن من من صديقاتها على استعداد للسفر إلى هذا المكان العديم الرونق المعرض إلى سقوط مطر يدوم نهارا او نهارات بطولها مانعاً فرصة الخروج للسير قليلاً.

قد تقبل فيليسا بذلك ارضاء لها، أما صديقاتها الاخريات فيستحيل أن يقبلن بذلك الوضع أبداً.

دخلت إلى غرفة الجلوس، واحضرت ورقة، وبدأت بكتابة رسالة إلى فيليسا. ولكنها سرعان ما ترددت، بعد ان لاحظت انها على الرغم من إرسالها العديد من الرسائل اليها، الا انها ردت ببضع بطاقات بريدية من اماكن متفرقة من العالم حيث كانت تعمل.

ومع ذلك فقد تابعت كتابة رسالة فدعتها إلى زيارتها في فرصة عيد الفصح، وبعد تردد، كتبت عنوان المنزل الريفي. اذ لا يمكن لدوغلاس ان يطالب فيليسا بالعنوان بعد كل هذه الأشهر، ولابد انه الآن قد نسي خطوبته لها.

وصل روجر في اليوم التالي، بدأ العمل في الحديقة، بمساعدة سالي التي شفيت ذراعها تماماً، كان دفء الطقس قد دفع عابري السبيل او السوّاح إلى الانتشار في السهول بسياراتهم وإلى زيارة بيوت القرية الاثرية، لكنهم نادراً ما دنوا من منزلها، اذ كان عليهم ان يتركوا سياراتهم ليصعدوا التل سيراً لكن ذلك لم يمنع عابري السبيل من طرق بابها متلمسين الخضار والحليب، وعندما ذكرت ذلك أمام روجر قال لها بقلق مقطب الجبين :

- يجب ان يرافقك كلب، فمن الخطورة بقاؤك وحيدة في هذه الارض الموحشة.

- لكن عمتي عاشت فيها سنوات طوال.

- ليس الأمر سياناً لان عمتك كانت عجوزاً بينما انت شابة في مقتبل العمر، جذابة.

نظر اليها متمعناً عندما قال تلك الكلمات فكان ان استدارت وهي تقول ضمنياً : ليتك تعلم. بعد قليل وقف روجر مستأذناً وقد بدا شاحب الوجه، وعندما فكرت بسبب وجومه هذا أدركت انها قد اشاحت وجهها عنه بعد ان تفوّه لأول مرة بكلمات الاطراء.

تنهدت منزعجة من تصرفها، لكنها لم تقل شيئاً لأنها وجدت ان من الأفضل ألا تشجعه أو تمنيه بآمال زائفة.

ردّت فيليسا على رسالتها لتقول انها قادمة لقضاء عطلة الفصح «ستفيدني الراحة، فأنا مرهقة تماماً. ولكنني احذرك من انني قد انام معظم الوقت».

شعرت سالي بالبهجة والإثارة فخرجت لتشتري أثاثاً لغرفة النوم وطلبت ستائر جديدة تناسب الشراشف والأغطية. لكن ما كان هذا الاثاث ليصل قبل ايام، استمرت سالي خلال ايام امام عتبة الباب ناظرة إلى اسفل القرية بانتظار السيارة التي ستنقل الاثاث.

لكنها لمحت يوماً وهي واقفة أمام عتبة منزلها شبح رجل يستخدم منظاراً مكبراً، فحسبته من مراقبي الطيور ليلاً.

عندما وصلت السيارة حاملة الأثاث اقبل روجر ليساعدها في نقلها إلى فوق، فعمد بعد ذلك إلى تعليق الستائر وتثبيت السرير وبينما هما منشغلان في العمل تناهى إلى مسامعهما طرقات عنيفة على الباب.

فقال روجر :

- أعتقد انهم بعض الرحالة، الذين يريدون استئجار غرفة للنوم، فاطلبي منهم الذهاب إلى منزل السيدة دهوت التي اصبح

لديها غرفة شاغرة بعد ان سافر ابنها.

ـ حسناً.

نزلت الدرجات راكضة وهي بشوق للعودة إلى الغرفة التي سترتبها لصديقتها المقبلة. فتحت الباب وهي تقول للطارق :

ـ آسفة، لا مكان لدي. . ولكن إذا. . .

ثم توقفت بذهول :

ـ دوغلاس !

في هذه اللحظة توقف الزمن كله، وامتنع جسدها عن الحركة وقلبها عن الخفقان وعقلها عن التفكير.

بقيت على هذه الحال إلى ان تركت عيناه وجهها لتجوبا جسدها المغطى بمعطف دون أكمام فوق كنزتها الواسعة السميكة فكان ان ارتفعت ذراعها اليسرى غريزياً فوق صدرها دليل عودة دفاعها القديم اليها.

ـ مرحبا سالي، لم أرك منذ زمن.

لم يكن في صوته نبرة انتصار انما مرارة كبيرة جعلتها عاجزة عن التكلم فكان ان تراجعت إلى الوراء وقد رأت الشرر يتطاير من عينيه، لكن دوغلاس خطا إلى الأمام وقد حسبها ستغلق دونه الباب.

ـ لا. . لن تفعلي هذا ! أريد أن أتحدث معك حديثاً طويلاً !

دخل إلى الغرفة بينما استندت سالي المترنحة إلى الجدار والدهشة لا تبارح وجهها.

ـ كيف. . كيف وجدتني؟

نظر اليها بسخرية، دون أن يفسر شيئاً. بل قال :

ـ كان همي أن أجدك أينما كنت.

دفع باب غرفة الجلوس ثم دخل، فتبعته سالي مرغمة، بينما

راح يتأمل ما حوله ساخراً.

ـ هل هذا هو أفضل ما استطاع ان يقدمه لك. . ذلك الرجل الذي هربت معه؟

ـ هذا ليس. . . لم يكن. . . هذا منزلي.

ـ واين هو؟ هل هو هنا؟

ـ لا. . انا. . انا وحدي.

ـ إذاً باءت علاقتك بالفشل فهل هذا أفضل لك؟

ـ لماذا. . لماذا أتيت؟ أنا لست. .

لكنه لم يكن يصغي اليها بل مد يده ليمسك معصمها اليسار الذي كانت تمده فوق صدرها، انزل يدها إلى الأسفل لينظر إلى اصابعها :

ـ هل تزوجك؟

صرخت سالي فوراً، وهي تخشى ان يلمس صدرها فيعلم أنه زائف.

ـ لا تلمسني.

ـ ولِمَ لا ايتها الفاسقة الصغيرة؟

فجأة تفجرت لديه كل المشاعر البدائية التي كبتها خلال الفترة الماضية فجرها اليه جراً.

ـ انت مدينة لي ايتها الفاسقة الفاجرة الجميلة الخادعة !

صرخت سالي ثانية وهي تقاومه ثم ضربته بيدها اليمنى التي أمسكها بقوة ثم وضعها خلف ظهرها ليضمها بعد ذلك بقسوة حيث أبقاها بين ذراعيه وهو يضحك بقسوة بينما رفع وجهها اليه بيده وهو يقول :

ـ الآن. . . وأخيراً أستطيع. . .

ارتد الباب فجأة بعد ان دخل روجر مزمجراً ليجذبها من قبضة

دوغلاس المذهول ولتقع بعد ذلك فوق الكرسي الذي وقع هو أيضاً ارضا.

لم يستطع دوغلاس المصعوق ردّ تلك اللكمة التي فاجأه بها روجر والتي أوقعته ارضاً، لكن الغضب الذي كان يعتمل في نفسه جعله يقف على قدميه والشرر يتطاير من عينيه.

- إذاً، أنت هنا. هيا إذاً، تقدم، لقد كنت أنتظر هذا، ايها الخنزير!

- لا.. لا.. انتظرا!

لكن صرخة سالي ذهبت سدى بعد ان لكم دوغلاس رأس روجر بقوة، تبعها لكمات تبادلها الرجلان بقوة، جعلت الطاولة الصغيرة تنكسر بما عليها من آنية، كانت قوة الرجلان متعادلة فالأول يملك الجسد الضخم والقوة الجبلية بينما الثاني يملك الشباب والطول لكن غضب دوغلاس الدفين والإحباط القوي جعلاه أكثر قوة من روجر، فإذا به يلطم ويلكم روجر المسكين الذي تراجع مترنحاً امام ضرباته القوية.

- توقفا عن هذا! توقفا! هل تسمعاني؟

لكن لم تلق كلماتها صدى في آذانهما، لذلك امسكت دوغلاس بيأس محاولة ابعاده عن ذاك المسكين، لكنه لم يكترث بها بل رماها وكأنها حشرة مؤذية إلى الارض ثم ناول روجر لكمة كادت توقعه أرضاً، فنهضت سالي عن الأرض ووقفت بينه وبين روجر ثم صرخت بدوغلاس.

- دعه وشأنه!

فتراجع باحتقار، منقطع الأنفاس، مشعث الشعر، والدماء تنزف من جرح فوق شفته، فقال بغيظ:

- لا بأس، إذا كان يريد الاختباء خلف امرأة.

- ابتعدي عن طريقي ودعيني أقضي عليه.

حاول روجر إزاحتها ولكن سالي تمسكت به:

- لا.. لا بأس.. انا أعرفه.

حدق اليها، واحدى عينيه قد بدأت تتورم:

- لكنه كان يهاجمك، وكنت تصرخين!

- اجل أعرف.. ولكن الأمر ليس كما تظن.. اوه روجر لقد كنت شجاعاً جداً، لكنني ارجوك اوقف هذا القتال المهزلة.

ترنح قليلاً، ثم ابعدها عنه عندما حاولت مساعدته، ووضع يده على عينه المتورمة:

- من هو إذاً؟

تقدم دوغلاس بغضب وتحد، ورغبة القتال ما زالت متأججة في نفسه.

- بل من أي جحيم انت؟

استدارت سالي بشراسة وهي تصيح بوجهه:

- ابتعد عنه.. إنه جاري ليس إلا.

- وهل تتوقعين ان اصدق؟

- ولكنها الحقيقة.

- بماذا أفسر وجوده فوق.

- لقد أتى ليساعدني في تعليق الستائر!

بدا على دوغلاس الإحباط، فأنزل قبضتيه ببطء، وبدأت سالي تأمل في ان يهدأ ولكن روجر أفسد الامر اذ قال بشراسة:

- هل هو السافل الذي هربت منه؟

فرد دوغلاس بسخرية غاضبة:

- هكذا إذاً.. انه جار قريب جداً.

ودون ان يتمالك نفسه أمسك بذراعها ثانية:

www.elromancia.com

- حسناً. . ألن تجيبي عن سؤاله؟ هل انا السافل الذي هربت منه. . أم انه الرجل الآخر؟

كان روجر قد استعاد وعيه قليلاً، واصبح جاهزاً لمتابعة القتال، فصاح به :

- ابعد يديك القذرتين عنها.

ادركت ان عليها ان تفرقهما عن بعضهما، فاستدارت لروجر :

- أشكرك كثيراً على مساعدتك يا روجر، لكنني أتمنى عليك الذهاب لأنني قادرة على تولي الامر.

- لن أتركك معه !

- لن يؤذيني.

- لن يؤذيك ! ماذا تسمين هجومه عليك اذن؟

احمر وجه سالي، الأمر الذي دفع روجر إلى التعجب، لكن ذلك زاده غضبا خاصة بعد ان قال دوغلاس بغطرسة :

- عليك ان تهتم بشؤونك اللعينة فقط.

- أيها القذر السافل ! لا تجرؤ أبداً على لمس سالي !

ابتسم دوغلاس بنعومة وخبث.

- ولماذا لا ألمسها؟ لن تكون هذه المرة الاولى، لقد فعلت ما هو أكثر من لمسها.

- ايها القذر. . .

حاول روجر مهاجمته من جديد فكان ان فقدت سالي اعصابها من الغضب لذا صرخت بهما :

- حسن جداً ! هيا الكما بعضكما ايها الغبيان الاحمقان.

قالت تلك الكلمات ثم دارت على عقبيها خارجة من المنزل.

تبعاها بسرعة، كان روجر الحانق على استعداد لمقاتلة دوغلاس إن طلبت منه ذلك، بينما الأخير كان مستمتعاً بهذا الوضع. تقدم

روجر منها، وأدارها لينظر إلى عينيها.

- هل يقول الحقيقة؟ كنتما؟

لم يستطع وضع ما يفكر به ضمن كلمات. لكن سالي قالت بصراحة دون ان تخبره عن الخطوبة :

- اجل كنا. . .

أرادت ان تخبره انهما كانا خطيبين ليس إلا ! لكن وجه روجر المشكك جعلها تمتنع عن إخباره رغم علمها انها بذلك ستخسر صديقاً.

- ما دام الأمر كذلك سأتركك معه لتقومي بما يلزم، إذا احتجت إليّ فما عليك سوى مناداتي.

هزت رأسها شاكرة.

- حسن جداً يا روجر، شكراً لك.

حثّ خطاه فوق المنحدر حيث كانت الشمس ترسل اشعتها إلى المراعي الفارغة، بينما غرّدت العصافير فوق الأشجار مسرورة بأعشاشها التي عادت لتبنيها من جديد. كانت الطبيعة حولها هادئة مطمئنة بينما منزلها الذي اكتنفه العنف والقسوة لم يعد ملاذاً هادئاً او مكاناً آمناً.

تركت عيناها روجر الراحل لتعود إلى دوغلاس الذي وقف ينتظرها والنظرة الساخرة لا تبارح عينيه. قالت له وقد بدأت شجاعتها تخونها.

- لماذا اتيت إلى هنا؟

- انت تعلمين جيدا السبب، فعلاقتنا التي بترتيها يتراً تحتاج إلى أكثر مما ذكرت في رسالتك الجوفاء تلك، فأنا ما اتيت إلا لأعرف سبب هجرك إياي. فمن هو ذاك الرجل؟ وما سبب رحيلك؟

ابتعدت عنه وهي تدعك ذراعها التي لفتها حول صدرها.

www.elromancia.com

ـ انس الأمر يا دوغلاس، فأنا ما اردت انتقاماً أو أذية. انس اننا التقينا يوماً ودعني وشأني.

وتقدم منها ليديرها اليه بغضب :

ـ اوه.. لا.. لن أستسلم بسهولة، فعندما قرأت تلك الرسالة الصغيرة الفاتنة صممت ان اجدك.. وأن أجعلك تدفعين ثمن ما ارتكبتيه بحقي ايتها الجبانة الحقيرة، ألم يكن لديك الشجاعة الكافية لتواجهيني.

ـ لا يملك كل انسان قوتك يا دوغلاس.

ـ ولكنني ظننتك كذلك.

ـ حسنا، لقد كنت مخطئاً، انا لست قوية.

ـ لقد عرفت ذلك بأبشع وأحقر الظروف.

جعلتها نبرة صوته الخشنة تنظر اليه متأملة، فكان أن خفق قلبها، فهي لم تكن قد تأملته جيداً بسبب ما جرى لكنها الآن رأته أكثر نحولاً مما تذكره، يكتنف وجهه نظرة ألم، وتعلو وجهه خطوط حزينة لم ترها قطّ قبل الآن، اغتصر قلبها ألماً مما رأته فأرادت أن تضمه اليها لتلمس هذه الخطوط ولتقبل وجهه الذي تريده ان يسترجع بسمته من جديد. كان الشوق يملأ كيانها وجوارحها التي راحت ترتجف أمام نظرة عينيه المتأملة.

قطب دوغلاس جبينه ثم اتسعت عيناه.

ـ سالي؟

ـ أشعر بالبرد.. سأدخل.

تبعها إلى غرفة الجلوس، إلى المكان الذي كانت تعتبره ملاذها أما الآن فقد بدا كأنه حانة في الغرب المتوحش خاصة وقد انقلب كل ما في الغرفة رأساً على عقب إثر الشجار. عندما مدت يدها لتلتقط الأشياء المحطمة قال دوغلاس :

ـ اتركيها.

فتجاهلته وتابعت عملها، ولكنه كرر بغضب وهو يوقفها.

ـ قلت لك اتركيها.

ـ لا تأمرني، فهذا منزلي الذي لا يحق لك ان تحطمه كما فعلت.

تصاعد غضبه من جديد :

ـ بل لي كل الحق! أنسيت اننا كنا على وشك الزواج بعد ان اعطيتني وعدك بذلك؟

ـ حسناً.. لقد غيرت رأيي!

تجاوزته لتدخل المطبخ، لكنه أمسكها بكتفها اليسرى التي ما زالت حساسة إثر العملية، فصرخت سالي من الألم موقعة من يدها الصحون التي كانت تحملها، فتركها على الفور :

ـ ماذا بك؟

ـ انا.. لابد أنني أذيت كتفي عندما وقعت.

وقفت جامدة دون أن تنظر اليه، وببطء رفع يده ليلمس شعرها، فأحست بالقشعريرة تسري في جسدها، فقالت :

ـ أرجوك.. أرجوك ان تذهب يا دوغلاس.

ـ لا! يجب أن أعرف لماذا تخليت عني!

ـ لم اتركك لعلة فيك انما كنت انا السبب.

ـ ومن هو؟

ـ إنه شخص غير مهم.

ـ واين هو الآن؟

ترددت وهي تبحث عن كذبة مقنعة.

ـ باءت علاقتنا بالفشل لذا تركته.

ـ ولماذا باءت بالفشل؟

لجأت إلى الغضب لتمتنع عن الإجابة عن هذا السؤال.

ـ لماذا لا تهتم بشؤونك !

امسك بشعرها، وجذبها اليه.

ـ هذا هو شأني. . وإلا فلماذا تظنينني هنا؟

ـ اعلم انني لن اجيب عن اسئلتك ابداً، فهلا تركتني وشأني.

قالت كلماتها تلك ثم جذبت نفسها من قبضته لتلتقط أنفاسها ثم تابعت بعد ذلك بكل ما تملك من برود :

ـ انت بتصرفك هذا تظهر غباءك وسخفك، أما فهمت إلى الآن انني ما رحلت مع رجل آخر إلا لأنني مللت منك ! بالله عليك لماذا تضخم المسألة فكأنها حدث جديد لم يشهده احد يوماً.

ـ قد يحدث ذلك مع غيري، أما معي فلا، كنت المرأة الوحيدة التي أردتها زوجة كما كنت على يقين من ان حبنا راسخ متين القاعدة لذلك أريد ان اعرف سبب تخليك عني ولن أرحل قبل ان يأتيني الرد.

حدقت سالي اليه عاجزة أمام تصميمه.

ـ ولكن. . ولكن لا يمكنك ان تعرف.

ـ يا للأسف !

ـ اسمع لا اريدك هنا.

كان دوغلاس قد استدار قليلاً لكنه عندما سمع هذه الكلمات عاد ليواجهها والغضب يقفز من عينيه إلى درجة جعلتها تتراجع مذعورة. قال لها بوحشية :

ـ كان علي أن أسحق رأسك.

ـ لم يسفر شجارك مع روجر عن فائدة كما لم يحل مشكلة.

ـ هذا صحيح، لكن هذا الشجار افضل حالاً.

ذهبت سالي إلى المطبخ لتأتي بمكنسة وحمّالة اوساخ. ولم

يساعدها في تنظيف ما سببه بمعركته مع روجر، بل وقف متجهماً. وبعد أن انتهت عادت إلى الغرفة وجلست على احد الكراسي. . فنظر اليها دوغلاس وقال :

ـ أنا أعني ما اقول، لن أغادر هذا المكان قبل أن أحصل على رد منك.

ـ كيف وجدتني؟

وتقدم ليجلس على مقعد وثير قرب النافذة وهو يضحك :

ـ لقد ظننت انك قد أخفيت كل آثارك، ولكنني مع ذلك كدت أقبض عليك مرة في لندن.

ـ بل مرتين. . ففي المرة الاولى كنت في شقة فيليسا والثانية أمام مبنى المحامي.

رفع رأسه دهشاً.

ـ لا يعقل ذلك، لقد نقبت منزلها تنقيباً.

ـ كنت على سلم الطوارىء، لكنني تسلقته إلى ان اختبأت خلف جدار.

ـ يا لك من ذكية، عندما أخفتك قرب مبنى مكتب محاميك علمت انك لن تعودي إلى هناك، لذلك اتصلت بوكالة عملك وبكل اصدقائك، لكنني لم اجد اثراً لك إذ كان الجميع يجهل مكانك لكنني يوماً تذكرت حديثك عن منزل عمتك النائي الواقع في يوركشير، كما انتبهت إلى ان رسالتك التي ارسلتها إلى فيليسا كانت تحمل طابع يوركشاير، فاستدللت من ذلك على أول الخيط فكان ان استأجرت من يبحث في دليل الهاتف في يوركشاير عن اسم برايس ولما لم يجدوا شيئاً طلبت منهم البحث في اشتراكات الكهرباء. هل تعلمين كم شخصاً باسم برايس في يوركشاير؟ ذكريني ان اقول لك الرقم يوماً، وأخيراً ضاق مجال بحثهم إلى

اسم النسوة اللواتي يسكن في أماكن نائية، فأنا اذكر انك قلت ان منزل عمتك في منتصف اللامكان. . وهكذا جئت بنفسي لاتمم اللمسات الاخيرة.

توقف قليلاً، وحاولت سالي ان تتصور مدى الغضب الذي كان يدفعه، ثم تابع :

ـ لم اكن متأكداً ان هذا هو المكان المنشود لذلك طرحت هذا الصباح بضعة اسئلة في القرية، ثم قدمت سيراً إلى هنا لأراقب من بعيد. . فرأيتك تقفين عند الباب.

إذاً هو من كان يحمل ذاك المنظار الذي ظنته لأحد مراقبي الطيور، كانت تعتقد ان حاسة المرأة تنبئها باقتراب حبيبها عندما يصبح على مقربة منها، لكنها رغم حبها الشديد لم تدرك ذلك. انها تحبه بقوة، نظرت إلى وجهه لكنها لم تلبث ان ابعدت عينيها عنه لئلا يلاحظ نظرتها الهائمة.

وقف دوغلاس ثم اقترب منها ليقف قربها، فبدا طويلاً ينذر بالخطر فوجوده ملأ عليها كيانها كما لم يفعل رجل من قبل.

ـ بعد كل هذا العناء الذي تكبدته غدا من المستحيل الرحيل قبل أن أحصل على ما أريد.

ـ وماذا تريد؟

ـ قلت لك، أريد إيضاحاً.

ـ وهل هذا كل شيء؟

ابتسم ابتسامة شريرة :

ـ نعم في الوقت الحاضر.

رفعت سالي نظرها اليه، وبعد ان عجزت عن تحمل وجوده قريباً منها على هذا النحو، تسللت من تحت ذراعه ووقفت.

ـ لا يمكنك البقاء هنا، فليس في القرية فندق.

ـ ومن قال انني سأذهب إلى الفندق. انا باق في هذا المنزل بالذات.

ـ يستحيل ذلك.

ـ ولماذا؟

ـ لأن هذا منزلي وأنا أرفض بقاءك فيه.

لكنه ضحك بسخرية، فقالت يائسة :

ـ للناس في هذه القرية عادات قديمة وافكار بائدة فهم لن يرضوا ببقائنا معاً.

ضحك دوغلاس ضحكة دهشة حقيقية !

ـ لا يهمني ما يفكرون فيه بعدما كانت عليه علاقتنا.

أبعدت سالي وجهها عنه، فالتف شعرها على وجهها، ملتقطاً أشعة الشمس، ثم لاحت لها فكرة، فقالت بلهجة انتصار :

ـ لا يمكنك البقاء هنا على كل الأحوال، ففيليسا قادمة لتزورني في عطلة الفصح.

ـ هذا جيد، عندها ستمثل دور الحارسة التي ستقضي على كل الأشاعات المحلية.

ـ ولكن لا مكان لك.

ـ سأنام على الأريكة، أو على الأرض. . انا هنا وسأبقى هنا.

علمت ان مناقشته لن تأتي بنفع لذا خرجت من الغرفة، ولكن ما ان بلغت الباب حتى ناداها دوغلاس باسمها، فتوقفت دون ان تستدير :

ـ ماذا تريد؟

ـ لماذا تخليت عن عملك؟

استدارت بسرعة لتنظر اليه وقد فاجأها سؤاله، لكن قبل ان تستطيع الاجابة تقدم منها وأمسك ذراعها، وقال بخشونة :

www.elromancia.com

- هل تركك ذلك القذر حاملاً ثم هرب؟ ألهذا ترتدين هذه الثياب التي لا شكل لها؟

رفع طرف كنزتها لينظر إلى جسدها. فضربته سالي بذعر.

- لا! لا تلمسني! اتركني وشأني!

تراجع عنها، وعيناه كأنهما بركتان مظلمتان أو كأنهما الجحيم:

- هذه هي المرة الثانية التي تكررين فيها هذا القول، ألهذا الحد تكرهينني؟

لم تستطع الاجابة عن سؤاله أبداً لذا راحت تحدق اليه إلى ان قال بقساوة:

- أريد توضيحاً منك... واعتذاراً. سأبقى هنا وساجبرك على التوسل الي.. هل تفهمينني؟ اعلمي انني لا أحفل البتة بما قد افعل لأحصل على ما أريد!

٥ - لا شيء قد يؤذيني أكثر

كان سبب الصمت الذي تبع تلك الكلمات الصدمة المفاجئة لهما. فالغضب والغيرة والمرارة التي اعتملت في نفسه منذ اشهر لم تظهر إلا الآن في شكل كلمات افصحت عما يكنه تجاهها من حب كبير. تراجع عنها مرتجف الجسد مضموم اليدين، يكافح بكل ما اوتي من قدرة لترتد اليه سيطرته.

أما سالي فلم تستطع النظر اليه لأنها كانت على يقين من انها لو فعلت لرمت بنفسها بين ذراعيه لتهبه الحب والطمأنينة اللتان يحتاجهما. ولم تدر كيف اتتها تلك الشجاعة التي جعلتها تستدير خارجة إلى المطبخ.

بعد ان كبح مشاعره عاد اليها ليقول:

- لقد تركت سيارتي على الطريق العام أسفل المنحدر، سأذهب لأركنها قرب المنزل.. فلا تخول لك نفسك إغلاق الباب في وجهي لأن ما أشعر به الان قد يدفعني إلى تحطيم الباب شر تحطيم.

شحب وجهها، وهي تغير حذاءها لتنتعل حذاء آخر وترتدي سترة سميكة لتقيها البرد.

- وأين تظنين نفسك ذاهبة؟

- إلى منزل روجر.

- ولماذا؟

لم تجبه، بل نظرت اليه بحدة، فقال بمرارة:

- يبدو انك تحبينه؟

- إنه صديق وجار.

- ليس أكثر؟

www.elromancia.com

ـ لا.

ـ لكنني أعتقد انه يود لو يصبح أكثر من صديق.

تجاهلته سالي، ثم تابعت المسير بينما نظراته تراقب سيرها إلى منزل روجر الذي وجدت بابه الخلفي مفتوحاً، فعندما دخلت المطبخ الصغير النظيف، رأته واقفاً عند النافذة التي تطل على منزلها، غير عابىء بالالتفات اليها، فتريثت قليلاً قبل ان تقول :

ـ هل لي أن أستخدم هاتفك؟

ـ تعلمين مكانه.

قطعت سالي الردهة ثم دخلت الغرفة المرتبة النظيفة التي يستخدمها روجر ثم اتصلت بفيليسا التي سرعان ما أجابت عبر مسجلة الهاتف وهي تطلب ان يترك المتصل رسالة.

كان في صوت سالي الحاح كبير عندما تحدثت :

«انا سالي. . أرجوك ان تأتي إليّ في اقرب فرصة ممكنة. لقد وجدني دوغلاس لذلك أحتاج إلى مساعدتك، بامكانك ترك رسالة لي على هذا الرقم إذا اردت» فكان ان أعطتها رقم هاتف روجر.

بعد ذلك أعادت السماعة ببطء، متسائلة إذا كان هناك شيء آخر تريد القيام به، لكنها عندما لم تجد شيئاً عادت إلى الغرفة حيث وجدت روجر واقف في مكانه قرب النافذة.

ـ كيف حال عينك. . ألا يجب ان تضع كمادة؟

فضحك وهو يهز كتفيه :

ـ لا حاجة إلى ذلك.

ابتعد عن النافذة ليستدير اليها سائلاً ببرود متناه :

ـ من هو؟

ـ كان. . كان خطيبي.

ـ وهل كنت ستتزوجينه؟

ـ اجل.

ـ وماذا حدث؟

ـ لقد تخليت عنه.

ـ وماذا فعل لك؟

ـ لا شيء. . لم يكن المخطىء قطّ! انما كنت. . لقد تركته دون سبب.

ـ لا بد أن شيئاً ما قد حدث. بل لابد انه قد ارتكب شيئاً ما في حقك؟

ـ لا. . أبداً. . لم تكن غلطته. . ولم يكن الامر متعلقاً به.

ـ وهل شعرت انك ما عدت تحبينه؟

كان بإمكانها ان تقول نعم، لكن نبرة الأمل البادية في لهجة روجر جعلتها تنكر بحزم.

فقطب جبينه وقال :

ـ أما زلت تحبينه؟

لم تجبه سالي، بل تقدمت من النافذة تنظر إلى دوغلاس الذي كان قد بدأ بإنزال أغراضه من السيارة التي وضعها قرب منزلها.

فقال روجر :

ـ لابد أن سبباً ما دفعك إلى تركه.

ـ لم أقل له قط السبب الحقيقي.

نظر اليها روجر بارتباك، ثم قال :

ـ لقد كنت محطمة الفؤاد عندما اتيت إلى هنا، بدوت حينها نحيلة جداً و. . فهل كنت مريضة؟ أو هل انت مصابة بذاك الداء. . ؟

تغضنت قسمات وجهه وهو عاجز عن إتمام جملته، أما هي فقد التفتت اليه وقد توتر جسدها وشحب وجهها لأنها اعتقدته قد عرف

www.elromancia.com

الحقيقة.

ـ المرض؟

ـ انت تعرفين. . ذلك المرض الفظيع. . الايدز. .

هدأ توترها فجأة فتنفست الصعداء.

ـ لا. . لا. . لم اصب بالايدز يا روجر !

استدارت لتخرج، ثم اخذت تتسلق التل، وهي تفكر بان وضعها أفضل بكثير من وضع أشخاص كثيرين وكانت هذه الفكرة قد خطرت لها مراراً لكن المريض عادة ينسى كل الدنيا ويفكر فقط في مأساته هو، ناسياً ان هناك اشخاصا يعانون أضعاف ما عانته.

وصلت إلى بوابة الحقل، فوقفت واستندت اليها متأملة المراعي الممتدة أمامها، متذكرة تراجع روجر الغريزي عندما حسبها مريضة بالايدز، فهل سيتراجع دوغلاس مذعوراً أيضاً عندما يعلم الحقيقة، كانت واقفة وهي تتساءل عن قدرتها على العودة إلى البيت حيث ستكون قريبة منه، ماذا لو فتحت هذه البوابة لتهرب إلى أعماق هذه المراعي المغطاة بالضباب فتضيع فيها حيث لا عودة أبداً.

سيطرت هذه الفكرة عليها حتى تصورت نفسها راكضة عبر التلال المرقطة بالألوان تحت اشعة الشمس تاركة وراءها هذا الجسد المشوه الذي طالما خانها، تاركة كل خوفها من المستقبل، كل حزنها وألمها. . . وببطء، وكأنما هي في غشوة، مدت يدها إلى القفل الحديدي للبوابة لكن وقع اقدام دوغلاس على العشب خلفها دفعها إلى التراجع عن القفل وقد تلاشت تلك اللحظات وكأنها حلم لم يكن.

ـ حسناً؟ كيف حاله؟

ـ ماذا؟ اوه. . لا بأس. . ستبقى عينه سوداء مدة بسيطة.

ـ سيفيده ذلك.

ـ وهل هذا صحيح؟

نظر اليها مفكراً ثم هز رأسه :

ـ لا. . لقد كان يحاول الدفاع عنك. . لكنني لست في حالة تجعلني أعتذر لأي كان.

استند إلى خشب البوابة بعد ان تقدّم منها ليتأمل أيضاً المراعي.

ـ لماذا لم ترجعي إلى لندن بعد ان ملّ منك وطردك، ذلك الرجل الذي هربت معه؟

ـ لم أرغب في الذهاب.

ـ إذاً، انت تعترفين انه طردك.

ـ لا أعترف بشيء. . فكر بما شئت.

عندما همت بالابتعاد أمسكها غاضباً.

ـ اعتقدتني اعرفك جيداً، بل كنت على يقين من براءتك وطهارتك، فلو أخبرني مطلق انسان عن هجرك إياي بسبب رجل آخر لضحكت كثيراً. بعد أن أزهق روحه لأنه عبث باسمك. لقد كنت أظن انك مخلصة وفية.

كان صوته يرتجف رغماً عنه، اصابعه تغرز عميقاً في ذراعها اليمنى التي لم تكن تؤلمها.

ـ لقد حدث كل شي سريعاً فلم يتسنى لنا وقت كاف لتعارفنا.

ـ تقصدين لم يتسن لي الوقت الذي يظهر انك مخادعة لا يكفيها رجل واحد.

التفتت اليه والشرر يتطاير من عينيها الخضراوين. لكنها عندما همت بالإجابة وجدت انه يحق له اساءة الظن بها.

ـ لقد فاجأك قولي هذا. أليس كذلك؟

ـ انا لم أكن على علاقة بأحد.

لم تكوني؟ اذن من هو ذاك الذي هربت معه؟ أهو شخص من الماضي أم انه رجل التقيته خلال سفرك إلى اليونان؟

وعندما لم تجبه أدارها بغضب لتواجهه :

ـ لقد سألت كل الذين سافروا معك عن الأمر فأجابوا جميعهم انك كنت الفتاة المثالية التي تنام باكراً كل ليلة دون سهر او مغامرات. ولكن من الممكن ان يكونوا كاذبين.. هل كان واحداً من المجموعة؟ هل هذا صحيح؟

ـ لا.. دوغلاس أرجوك دعني عد إلى بيتك لتجد فتاة أخرى، انس اننا التقينا.. ألا ترى ان هذا الأمر يحطمك؟ وانه ينقلب إلى هوس.

ـ سألعب اللعبة كلها فلن أغادر هذا المكان قبل ان اعرف القصة كاملة منك.

نظرت اليه نظرة متشائمه، متسائلة عن قدرتها على اختراع قصة مقنعة. لكنها على يقين من ان شيئاً لن يكفيه لأن غضبه العميق لن يروي ظمأه سوى امتلاك جسدها، فتخليها عنه وهجرها اياه آلم كبرياءه، لذلك هي تشك في أنه سيسامحها يوماً على ما فعلت به.

ولكن يجب ان لا تسمح له بالدنو منها، فرفعت رأسها وواجهته بإصرار قائلة :

ـ لدي شاهد رآك تهاجمني، فإذا لمستني ثانية فسأجعلهم يلقون القبض عليك بتهمة الاغتصاب.

رفع حاجبيه قليلاً قبل ان يحدج جسدها بنظرة طويلة.

ـ لكنك قد توافقين على إقامة علاقة ما.

ـ لن اوافق أبداً يا دوغلاس وانا أعني ما اقوله.

ـ الآن اصبح كل منا يعرف موقعه.

كان موقفاً حاسماً من الطرفين، لكنه لا يخلو من مشاكل

كثيرة.

استدارت سالي عائدة إلى المنزل، فرافقها دوغلاس بصمت إلى الباب الخلفي حيث علقت معطفها في الردهة الخارجية للمطبخ ثم خلعت حذاءها. بعد ذلك فكرت بكيفية التصرف في وضع كهذا. فكان ان ساعدها دوغلاس على القرار بقوله :

ـ سآخذ أغراضي إلى فوق، فأيهما غرفتي؟

ـ جدها بنفسك.

لكنها بعد لحظات هرعت صاعدة السلم إلى غرفتها وأغلقت الباب خلفها، وأمسكت صورتها مع دوغلاس التي كانت تحتفظ بها قرب الفراش وأخذت تتلمسها بحنان، خشية ان تعكر لمسة قاسية السعادة البادية على وجهيهما.. يجب ان تخفيها... حمدت الله لأن دوغلاس لم يفتش المنزل لأنه لو فعل ذلك لاكتشف حقيقة مشاعرها تجاهه.. اين تخفيها؟ على سطح الخزانة؟ او داخل حقيبة؟ لا.. إنها أمكنة مفضوحة، فجأة دق دوغلاس الباب.

ـ سالي؟

شدت الصورة إلى صدرها مذعورة :

ـ ماذا تريد؟

ـ ماذا عن الفراش والستائر في الغرفة الأخرى؟

ـ هذه مشكلتك لا مشكلتي.

ـ يا لهذه الضيافة الساحرة.

سمعت خطواته تبتعد، ثم سمعت صوت «المقدح» وهو يثقب الجدار لوضع الستائر مكانها. تنهدت بارتياح، ثم أخرجت جارور من الخزانة لتضع الصورة تحته ثم أعادته مكانه، فما حاجتها إلى الصورة بينما الرجل الحقيقي هنا معها في المنزل.

قالت لنفسها علي ان أكون عملية، فيجب أن أعيش ساعة

بساعة ويوماً بيوم. وهذا أمر ليس بالعسير أبداً، لأنه عمل اتبعته منذ العملية المشؤومة.

بعد قليل توقف الصخب في غرفة دوغلاس الذي سمعته يصعد السلم مراراً وهو ينقل من السيارة أغراضه التي احضرها معه وفي نيته البقاء مدة طويلة لا قصيرة، لكن متى سيستسلم؟ وكيف استطاع ترك عمله؟ فهل استأذن اباه؟ لكن إلى متى؟ اسئلة كثيرة راودتها، لكنها لم تلق اجابة عن اي منها لذلك وجدت ان الجلوس هكذا لن يزيدها إلا جهلاً، فأخذت نفسا عميقا، ثم فتحت الباب قاصدة المطبخ.

تبعها دوغلاس فوراً وهو يحمل حقيبة ادوات روجر.

ـ أعتقد ان هذه العدة لجارك الذي لم أتعرف إلا باسمه بعد.

ـ وغلطة من كانت هذه؟

دفعته لهجتها إلى الابتسام فقال لها :

ـ ربما علي أن أوصلها له بنفسي.

ـ لا اترك روجر وشأنه. . لا شأن لك بكل هذا.

ـ لماذا تدافعين عنه دائماً بهذا الحماس؟

تقدم إلى الردهة الأمامية ليفتح الباب إلى غرفة أمامية أخرى.

ـ ما هذه؟

ـ إنها غرفة كانت تستخدمها عمتي لإيواء عابري السبيل عند الحاجة.

ـ وهذه؟ شكلها يوحي بأنها غرفة طعام.

ـ نعم، لقد أصبت.

ـ لا يبدو انك تستخدمينها.

ـ صحيح.

ـ ولماذا لا تستخدمينها؟

ـ من الحماقة استخدامها وأنا امرأة أعيش وحيدة، فمن الأسهل بالنسبة لي أن أستخدم مائدة المطبخ.

ـ وإن جاءك زائرون فماذا تفعلين؟

ضحكت ضحكة مريرة :

ـ أنا. . لا استقبل أحداً.

تركته لتدخل المطبخ، فتبعها وقال :

ـ ألا يزورك أحد؟

ـ لا.

فتحت البراد لتخرج علبة البيض.

ـ وصديقك روجر؟

ـ نحن نتغدى معاً عندما يعمل روجر لدي، لكنه لم يحدث ان تناول عشاء معي.

كان دوغلاس يجلس على طاولة خشب الصنوبر الكبيرة التي كانت تحتل منتصف المطبخ تماماً، وقال وعيناه ثابتتان على وجهها :

ـ ألا يأتيك زائرون؟

ـ بلى يأتيني من لا أرغب في وجودهم.

بدا غير عابىء بتلميحها.

ـ وماذا عن فيليسا؟ لقد قلت إنها آتية. . فهل كنت تكذبين؟

ـ لا. . إنها آتية. . وستكون ضيفتي الاولى التي اشتريت من اجلها اغراض الغرفة الاخرى.

تقدمت إلى الطاولة، وكسرت البيض في وعاء ثم أخذت تخفقه لتصنع العجة، كانت تعمل بصمت بينما راح دوغلاس يراقبها حتى جعلها عاجزة عن التركيز على عملها ولما نظرت إليه وجدت أن أفكارهما واحدة. كانت افكارها قد نقلتها إلى ذاك المنزل الذي كان سيضمهما يوماً لو تزوجا. فتصورت نفسها وهي تعد

www.elromancia.com

وجبة الطعام بينما البسمة تعلو ثغريهما، والرضى يكتنفهما، بدل هذا الوجوم الذي كان يلفهما الآن.

سألته وكانت الكلمات تخرج غصباً :

ـ ماذا. . ماذا حدث للمنزل الذي اشتريته؟

بدت عينا دوغلاس متحجرتين كهذا الجليد الذي يعمي القمم حولهما.

ـ لماذا تهتمين به بحق الجحيم؟

قال تلك الكلمات بغضب ثم أردف بعد هنيهة :

ـ ما زلت أملكه. . لأنني لم أجد في إعادته فائدة، اضيفي إلى انني لم أجد وقتاً لبيعه.

حضرت مكانين عند طرف طاولة المطبخ حيث تتناول طعامها عادة، قطعت قطعاً من الخبز المصنوع في البيت من الطحين الطازج ليأكلاه مع حساء سميك صبته من الوعاء الذي كان يغلي فوق النار، وقالت باختصار، وهي تضع وعاء الحساء المغلي على الطاولة :

ـ العشاء جاهز.

كيف لها ان تتناول الطعام وهو قربها فعلاً، عندما شرعت بالطعام ارتعشت يدها لذلك وضعت الملعقة على الطاولة، فقال لها ساخراً :

ـ ماذا دهاك؟ هل فقدت شهيتك؟ أيفقدك وجودي الشهية؟

كافحت لتسيطر على اعصابها، ثم التقطت الملعقة وعادت لتأكل. لكنه محق، لقد أفقدها شهيتها. قال بعد قليل :

ـ لقد قلت ان روجر كلايتون يعمل هنا، فماذا تعنين؟

ـ يساعدني على إعادة تأهيل المنزل كي يصبح صالحاً للسكن، وهو الآن يعمل في الحديقة.

ـ وهل تدفعين له أجراً؟

ـ لا.

ـ كيف تعوضين الأجر إذاً؟

ـ لو تركتني أنهي كلامي لقلت لك ان روجر يحب السيارات وبما ان عمتي قد تركت سيارة قديمة فقد وافق على العمل مقابل حصوله على هذه السيارة.

ـ فهمت. . اعذريني. . وكم بقي له من عمل قبل أن يسدد ما عليه.

ـ لست أدري. . سيخبرني عندما يحين الوقت.

ـ يبدو ان هذا اتفاق سخي، ولكن يبدو أيضاً ان روجر يحبه هكذا. لأنه يعطيه ضوء اخضر يخوله المجيء إلى منزلك للتغزل بك متى شاء.

لم ترد عليه قوله لأنها رأت ان هدفه من هذا الكلام إثارة أعصابها.

ـ هل صنعت هذا الخبز بنفسك؟

ـ ماذا؟. . اوه اجل.

فقال ساخراً :

ـ انك كفوءة بل موهوبة إلى حد ما كنت لأصدقه.

ـ ما كنت لتصدق؟

ـ ماذا حدث للعارضة الطموحة التي كانت تتجه نحو القمة؟ او الفتاة العاملة التي لم يكن وقتها يسمح لها بتناول الطعام في المنزل؟ وماذا حدث للشعر البراق وللوجه المشرق؟ بل ماذا حدث للثياب الجميلة الأنيقة؟

وضعت سالي كوعها الايسر على الطاولة ومدت ذراعها :

ـ هل أنهيت الحساء.

www.elromancia.com

مدت يدها لتأخذ الطبق من أمامه، فأمسك بمعصمها وقال بشراسة :

ـ لقد سألتك سؤالا.

ـ اعلم. . ولكنني. . .

أشاحت بوجهها عنه وهي تحاول اخفاء الحزن الماثل في عينيها.

ـ وما فائدة الأزياء في مكان كهذا؟ فالخراف التي غالباً ما تكون رفيقتي الوحيدة، لن يهمها ما ألبسه.

ـ ولماذا تبقين هنا إذاً؟

ـ لأن هذا ما أريده، فأنا سعيدة هنا.

كانت تكذب بشجاعة، لكنه صاح :

ـ هراء! سبب مجيئك إلى هذا المكان النائي خوفك الشديد من مواجهتي أليس ما أقوله الحقيقة؟

انتزعت يدها منه، ثم وقفت، لتلتقط أوعية الحساء التي وضعتها في المغسلة، ثم أتت بأطباق العجة والسلطة. وقالت :

ـ انت تفكر كثيراً بنفسك، انت مغرور حقاً! لا تعتقد ان قدومي دافعه الهرب منك.

ـ فلماذا أتيت إلى هنا إذاً؟

نظرت إليه نظرة متعبة :

ـ سل ما تريد لكن اعلم انني لن أجيب عن اسئلتك فهلا تناولت طعامك بصمت.

واشتد فمه ليصبح خطاً مستقيماً متهجماً :

ـ تحسبين نفسك فائقة القوة، لكنني سأبرهن لك انني سأرغمك على البوح بالحقيقة بعد أن أرهق أعصابك هذه.

التقت عيناهما بتحد كبير، فكان ان اشاحت وجهها عنه أولاً وهي تفرك جبينها بيدها وكأنما تحس بصداع، بعد ذلك واصلا وجبة

الطعام بصمت، يغلفه التوتر المتضاعف الذي لا تدري أسببه وجودهما معاً أم سبب آخر؟

بعد أن أنهت تنظيف الأواني وبعد أن أعادت كل شيء إلى موضعه، جففت يديها بقلق، علقت المئزر وراء باب المطبخ، ثم نظرت إلى وجه دوغلاس الذي كان يراقبها وهو يحتسي القهوة، فأحست برعدة خوف تجتاحها لأنها رأت في عينيه نظرة شيطان مخيف ينتظر الوقت المناسب ليطبق فخه على رقبة فريسته.

تفاعل الغضب في نفسها لأنها ما عادت تطيق لعبة القط والفأر لذلك قررت لعب دور القطة فاستندت إلى المغسلة شابكة ذراعيها فوق صدرها ثم قالت :

ـ هل قضيت فترة طويلة أثناء بحثك عني في يوركشاير.

ـ حوالي الاسبوعين.

ـ حقاً. . ؟ أين ذهبت أولاً؟

رد عليها بحدة :

ـ هذا لا يهم.

ـ لا. . لا أعتقد انه يهم. . لابد أن الأمر كان قد سبب لك بعض الإحباط.

ـ ليس بعد ان حققت الغرض منه.

ـ لكنك لم تحقق غايتك إلى الآن.

ـ هدفي الأساسي كان أن أجدك.

ـ اوه. . اجل. . بالطبع. . وكم تنوي ان تبقى هنا؟

ـ ما طاب لي المناخ.

ـ وماذا عن عملك؟ لا يمكنك الابتعاد عنه إلى ما لا نهاية.

ـ لا يجب ان يزعجك ذلك.

ـ لا يزعجني انما يزعج والدك بالتأكيد. فما هي الفرصة التي

www.elromancia.com

اعطاك إياها؟

صاح دوغلاس بها :

ـ لقد قلت لك، هذا ليس من شأنك. . هل سنبقى في المطبخ؟

حدقت سالي إليه باستغراب :

ـ لقد هربت من عملك. . أليس كذلك؟ أراهن انك بعد ان تلقيت تلك العناوين التي قد توصلك إليّ قلت لوالدك فليذهب العمل إلى الجحيم، وأتيت إلى هنا. . . لقد كنت على حق. . انت مهووس حقاً.

ـ أوكيس الأمر من حقي؟ أتعلمين بما شعرت به عندما كنت في نيوزيلاندا عاجزاً عن الاتصال بك أو عندما اخبرتني امي عن نكثك بوعدك يوم دعوتهما إلى الغداء وعن تركك رسالة مرفقة بخاتم الخطوبة.

ـ لا. . أنا. . .

ـ لا. . بالطبع لن تعرفي، ولن تتصوري ما مررت به وأنا أقلب الارض والسماء كي أنهي عملي وأعود باسرع وقت، متشوقاً لأقرأ رسالتك وكلي أمل ان يكون ما افكر فيه خاطئ.

توقف، محاولاً السيطرة على المرارة في صوته :

ـ ثم قرأت الرسالة التي هي عبارة عن كلمات باردة جوفاء هشمت أجمل حلم عشته وانتظرته طوال حياتي، يا لها من كلمات تلك التي كتبتها : «انا آسفة لكنني وجدت شخصاً آخر».

شدها بقسوة عندما أمسك كتفها فآلمها إلى درجة الصراخ، لكن صوتها وألمها لم يردعاه عن متابعة القسوة.

ـ عندها بدأ الجحيم الحقيقي. فتصورتك بين ذراعي رجل آخر تهبينه حبك الذي يجب ان يكون لي وحدي. أيتها الفاسقة أتعرفين اي جحيم عشته واي عذاب ذقته؟ وها أنا أسمعك بعد ان ذقت

الأمرّين تقولين الهوس ليس حقاً من حقوقي.

هزها بعنف وغضب، فصاحت :

ـ توقف عن هذا! انت تؤلمني.

بدا للحظة مسروراً بإيذائها، لكنه سرعان ما دفعها بعيداً عنه بازدراء وقوة جعلتها تصطدم بالحائط بعنف افقدها رونق وجهها ودفعها إلى التأوه من الألم الذي نتج عن ذراعها اليسرى التي ارتطمت بالحائط أولاً. كان دوغلاس قد أدار لها ظهره غير عابىء بما حدث لها. وبقيا على هذه الحالة غير الواعية دقائق، لكن عندما تكلمت سالي كان الألم قد غادر وجهها بينما بقي ذهنها متشوشاً :

ـ إذاً، لقد تخليت فعلاً عن عملك.

رد بخشونة وهو يستدير لينظر إليها :

ـ بالطبع. فلم اقدّم فائدة ترجى مؤخراً، لأنني غالباً ما تغيبت وأنا أبحث عنك. أما الاوقات التي كنت اقضيها في العمل فكانت عديمة الفائدة أيضاً لانني ما كنت بقادر على التركيز إطلاقاً.

أحست انها مجبرة على ان تقول شيئاً. . ولكنها لم تقل سوى :

ـ أنا آسفـ. . .

ـ لا تقولي شيئاً لا تعنينه أبداً.

ـ ولكنك قلت انك تريد اعتذارا مني.

ـ لقد قلت انني سأجعلك تتوسلين الي. . لكن هذا لن يحدث الآن، لكن اعلمي انني بعد أن أنتهي منك سأجعلك تركعين متوسلة، راجية أن أدعك وشأنك.

ـ ولِمَ الانتظار؟ انا على استعداد للركوع الآن بين يديك على ان تذهب من هنا. لكنني على يقين من أنك لن تفعل ذلك لأنك تريد أن تبقى هنا لتحول حياتي بؤساً وشقاءً، ولتذيقني الجحيم الذي عانيت منه، أما السؤال الذي تنتظر الإجابة عنه فما هو إلا رغبة

مريضة تدفعك إلى ردّ الطعنة النجلاء إلى قلبي انا، انت الآن تلتذ بإيذائي لانك لا تطلب سوى كومة اللحم التي خسرتها في. . .

توقفت متذكرة كومة اللحم التي خسرتها هي :

ـ اوه. . يا الهي !

وضعت رأسها بين يديها وضغطت بأصابعها على جلدة رأسها. تقدم دوغلاس اليها لينزل يديها عن رأسها، ليحدق إلى قسماتها الحزينة :

ـ اجل. . ربما انت على حق بهذا. . ربما هذا هو سبب مجيئي إلى هنا. . وربما بدأت احصل على ما أردته.

بذلت جهود جبارة لئلا تنفجر باكية. لكن أليس من الأفضل ان تفعل ذلك. بعد لحظات همست بلهجة بائسة متثاقلة :

ـ ما عدت أعرفك إطلاقاً.

ـ وهل تظنين انني تغيرت كثيراً؟

فهزت رأسها وقالت متنهدة :

ـ لست أدري، ربما لم تتغير. . . ربما كان هناك جانب منك لم اشاهده من قبل.

ـ ماذا تقصدين؟ انك قد أحسنت الصنع عندما هجرتني.

لاحت نظرة ألم في عينيها، ولكنها تمكنت ان تستقيم في وقفتها تماماً لتنظر إليه متحدية.

ـ أجل. . بالتأكيد. . وكلما اسرعت في إدراك هذا، والذهاب إلى بيتك، كلما كان أفضل لنا. انا اعترف ان تصرفي كان خاطئاً، لكنني اعتقدتني بذلك اسهل عليك مسألة انفصالنا، أعلم انك قد غضبت كثيراً لكن ذلك كان خيراً من استمرار علاقتنا. عادة عندما يكون الناس غاضبين ينفصلون عن بعضهم بسرعة أكبر. . ومن المؤكد ان الغضب افضل. . افضل من تحطم القلب واليأس.

فقال دوغلاس بصوت أجش :

ـ وهل هذا كل ما تظنين، مجرد انفصال؟ حسناً، لقد كان الامر أكبر بكثير من هذا بالنسبة لي. . لقد كنت حب عمري، لم أرد امرأة كما أردتك انت كما أنني لم ارغب في أن أجعل غيرك من النساء زوجتي. كنت على استعداد لأهبك حياتي لأضع بين يديك عمري كله، ومع ذلك قذفت كل ذلك عرض الحائط مختصرة كل ما كان بيننا بكلمات لا تغني عن جوع أبداً، ثم رحلت بعد ذلك مع حبيبك الجديد أم أنه مجرد رجل استهواك، فذهبت معه؟

ـ لست مضطرة للاستماع إلى هذا الكلام.

حاولت الخروج من المطبخ لكنه أقفل لها الطريق :

ـ ما قلته لا يعبر شيئاً لأن ما هو قادم افظع وامر.

لم تعد تحتمل المزيد. فدفعته عنها وخرجت إلى الردهة حيث تمسكت بقائمة السلم، محاولة إيجاد القوة لتصعد إلى غرفتها، لكنه تقدم منها ووضع يده على ذراعها :

ـ يبدو عليك التعب. . تعالي اجلسي قليلاً.

نظرت اليه بحدة، وقد فاجأها لطفه المفاجيء، كان وجهه صافياً، ولكنه لم يستطع إخفاء نظرة الترقب في عينيه، وحاولت التراجع ولكنه كان قد امسك بها ليقودها نحو غرفة الجلوس.

ـ هل لديك جهاز تلفزيون؟

حارت في أمره، ولكنها سمحت له ان يقودها إلى داخل الغرفة ليضيء الأنوار، فأجابت متلعثمة :

ـ لا. . انا. .

وتوقفت عن الكلام مشدوهة، ثم صرخت صرخة ألم كبيرة، وارتفعت يداها إلى وجهها : «اوه. . لا. . !»

ففي وسط الغرفة كان دوغلاس قد وضع مسند لوحاته، وعليها

اللوحة غير المكتملة التي رسمها لها. اللوحة التي تمثل قاعدة حجرية، والتي كان قد لون صدرها بلون ابيض صدفيّ، صدرت عنها صرخة إحباط ثانية، وهي تستدير لتنظر اليه.

- يا إلهي كيف يمكنك ان تكون قاسي الفؤاد إلى هذا الحد؟

وذهل من ردة فعلها، ولكنه مع ذلك رد بقساوة.

- إذا كنت قاسي الفؤاد، فهذا لأن معلماً قديراً قد ارضعني القسوة رضاعاً.

أخذ جسدها يرتجف بحركات متشنجة، وانفجرت في وجهه :

- انت لم تلمس سوى سطح الالم. أما أنا فأفهم معنى فقدان من أحب، ومع ذلك تريد معاقبتي لكن اعلم ان لا شيء قد تفعله قادر على ان يؤذيني أكثر مما أوذيت.

٦ ـ سجينة بين ذراعيه

وهربت سالي من غرفة الجلوس إلى غرفة نومها، مترنحة اثناء صعود السلم، ولم تدر كيف استطاعت فتح الباب أو إغلاقه لتهوي بعد ذلك إلى الارض مسندة ظهرها إلى الباب، واضعة ذراعيها فوق صدرها وهي تغرز أظافرها في لحمها بغية إيذاء نفسها لإخراج الألم من قلبها، فرؤيتها تلك اللوحة اعاد إلى ذهنها صورتها عندما كانت سليمة خالية من التشويه. يومها كانت أنيقة رشيقة، تضج بالحيوية والنشاط، أما الآن فهي ليست إلا فراغا، او قوقعة محطمة، أجهشت بالبكاء، تائهاً قلبها، متألمة نفسها مسترخياً رأسها مجروحة حنجرتها حتى عجزت عن إخراج نحيبها.

تناهى صوته اليها من خلف الباب بعد ان قرعه قرعات متتاليات :

ـ اذهب. . اذهب من هنا.

ـ أريد أن أتحدث إليك.

ـ اذهب من هنا ! دعني وشأني !

حاول فتح الباب ولكنه وجده موصدا. فزحفت سالي مبتعدة عن الباب وهي تحس بالتوتر لقربه منها وإن كان بينهما حاجز خشبي. كانت تجر نفسها وآلامها جراً حتى وصلت إلى سريرها فوضعت رأسها على الوسائد لئلا يتناهى اليه صوتها الباكي، في هذه الأثناء كانت قرعاته تتوالى مراراً على الباب دون رد حتى تركها ذاهباً، بينما تدفق دمعها غزيراً إلى أن انهكها البكاء فغرقت في نوم عميق مليء بالكوابيس.

عندما استفاقت كانت الغرفة غارقة في ظلام الليل الدامس،

www.elromancia.com

فمدت يدها لتنير المصباح قرب الفراش، واذ بالساعة تطالعها وقد تجاوزت الثالثة صباحاً. . كانت عيناها تؤلمانها وحنجرتها أيضاً كانت تؤلمها من جراء البكاء، أما الغرفة فكانت باردة لأنها كانت قد نسيت النافذة مفتوحة، فحملت نفسها اليها لتغلقها، لكنها تريثت قليلاً عندما رأت نوراً ينبعث من احدى غرف منزل روجر الذي على ما يبدو ما زال مستيقظاً، لكن الغرفة التي اضيئت كانت في الطابق الأعلى، وهي غرفة ما كان يستخدمها للنوم، ففكرت انه ربما استيقظ للإشراف على ولادة احدى النعجات التي بدأ موسم توالدها او انه قصد هذه الغرفة عندما جفاه النوم لينظر إلى منزلها وهو يتساءل عما يحدث بينها وبين دوغلاس.

أقفلت الستائر، وأبعدت روجر عن تفكيرها، فما عندها يكفيها. بعد ذلك خلعت ملابسها الخارجية، وتقدمت إلى المغسلة، فغسلت وجهها وعينيها، تاركة الماء البارد ينهمر فوق ذراعيها، وببطء جففت الماء عنها، ثم مدت يدها إلى الخلف لتفك صدريتها وتلتقط بيد صغيرة الجزء الاصطناعي وراحت تتأملها، كانت مصنوعة من مادة طرية ناعمة لها لون بشرتها، تدل إن دلت على شيء على الجهد الذي بذله صانعها حتى جعلها تشبه إلى حد كبير الثدي الحقيقي الذي لن يحل شيء مكانه.

وضعت الثدي الاصطناعي في علبته، ثم أخذت ثوب نومها من تحت الوسادة، وهي تشيح وجهها عن المرآة كما تفعل كل ليلة. . ولكنها الليلة توقفت، وترددت لبضع دقائق، ثم اضاءت الضوء الرئيسي في الغرفة، وتقدمت إلى المرآة الطويلة القديمة الفيكتورية الطراز التي كانت لعمتها، والتي وضعتها في زاوية الغرفة عندما وصلت حتى لا ترى نفسها فيها، فجذبتها إلى منتصف الغرفة ووقفت أمامها لتتأمل جسدها كاملاً في عمقها الفضي الغني

الصافي. كانت هذه هي المرة الأولى التي تحاول فيها ان تنظر إلى نفسها لكنها ترددت دقائق قبل ان تجبر نفسها على النظر، في البداية شعرت بالسقم والألم عندما طالعها جسدها في المرآة، لكنها عادت فأجبرت نفسها على النظر ثانية وهي تخاطب نفسها قائلة : تظاهري ان من ترينها ليست انت، تظاهري انها صورة، صورة شخص غريب لا يمت اليك بصلة هيا. . انظري. . فلا يمكن ان يسبب لك النظر هذا الألم كله.

أدارت رأسها ببطء ثم فتحت عينيها ومشاعرها تصارع عقلها. . هذه ليست صورتك الحقيقية. . . انظري إلى هذا الجرح الذي استلزم التئامه خمسة وثلاثين قطبة امتدت من منتصف الصدر تماماً إلى الذراع. كان الجرح قد أخذ يتلاشى أما الاحمرار فزال تماماً لأن الجراح قد قام بمهمته خير قيام مع هذه التي تنعكس صورتها في هذه المرآة. فهو وإن لم ينقذ جسدها فقد أنقذ حياتها.

أمسكت ثوب النوم الفضفاض ذا الياقة العالية والاكمام الطويلة الذي كان لعمتها ثم ارتدته ليقيها برد هذا الشتاء القارص.

عندما فتحت عينيها عند التاسعة والنصف صباحاً احست بثقل في رأسها جعلها تفكر بالبقاء في الفراش، لكن إحساسها بالذنب تجاه دوغلاس وشوقها إلى رؤية وجهه الحبيب دفعاها إلى النهوض.

لم تجده في المنزل انما وجدت ما دلها على تناوله طعام الفطور. فركضت إلى غرفته وهي تحسبه قد غادر المنزل، لكن أغراضه التي ما زالت في الغرفة وسيارته التي ما زالت أيضاً في مكانها جعلتها ترى أنه لم يبتعد عن المنزل كثيراً.

جالت عيناها في أنحاء الغرفة فوجدت السرير مرتباً تماماً فدنت منه وتلمست الوسادة الباردة التي إن دلت على شيء فعلى استيقاظه باكراً. وبينما هي في غرفته سمعت صوت إقفال الباب

في الأسفل فأسرعت خارجة فرأته قد خطا الخطوة الأولى على هذا السلم.

سألها ساخراً بعد ان شاهدها تخرج من غرفته :

ـ هل وجدت ما تبحثين عنه؟

ـ لسوء الحظ نعم. . لقد كنت آمل بأن تكون قد رحلت.

ونزلت إلى الأسفل، فرأت أن هناك سلة من المشتريات عند قدميه، لابد أنه اشتراها من الدكان في القرية.

تقدمت منه قليلاً حيث سلطت عليها الشمس اشعتها التي أظهرت حول عينيها دوائر سوداء ما كانت لتخفيها مساحيق الزينة وإن موهتها بعض الشيء. قال لها بخشونة وقد اتسعت عيناه عند رؤية مظهرها :

ـ لا يبدو أنك قد نمت جيداً.

ـ أعتقد ان ذلك يسرك، أكنت تتبضع؟

وضع السلة على طاولة المطبخ :

ـ اجل. . فما لديك في البراد لا يكفي لاطعام عصفور.

ـ لم أكن أتوقع قدومك، لو أعلمتني لطلبت من روجر ان يذبح بقرة وبضعة خراف.

فضحك قائلاً :

ـ يبدو أن ليلة السهاد هذه لم تؤثر على طبعك الحاد.

ـ وهل كان من المفترض أن تؤثر؟

تجاهل سؤالها، ليطرح عليها سؤالاً ما زال يسيطر على فكره منذ البارحة :

ـ لماذا تكدرت عندما شاهدت اللوحة؟

ابتسمت بحزن وقالت :

ـ وهل ظننت أن الصورة هي التي كدرتني؟ لا. . بل المسألة

انك بدوت وكأنك قد احتللت المكان كله.

لم يصدقها، ولم تتوقع منه حقاً أن يصدقها. لذلك شغلت سالي نفسها بوضع المشتريات الكثيرة، التي تشير إلى بقائه مدة لا بأس بها، في موضعها. قال وقد رأى دهشتها عندما نظرت إلى الطحين :

ـ لقد سجلت الطحين على لائحة مشترياتك.

قال تلك الكلمات وهو يشير إلى اللوحة المثبتة على الحائط.

ـ أوه. . اجل. . بالطبع.

صبت لنفسها فنجان قهوة ثم جلست إلى الطاولة لتشربه، فسارع دوغلاس إلى القول بسخرية :

ـ أرجوك. . لاتزعجي نفسك بصب فنجان لي. . سأخدم نفسي بنفسي.

حمل فنجانه ثم جلس بقربها وهو يقول لها بعد أن تأملها ملياً :

ـ كنت اظن ان الجريدة تصلك إلى هنا، او انك تحضرينها من الدكان. لكن المرأة هناك قالت انك لم تشتري جريدة قط. كما اني لا ارى تلفزيوناً أو أي شيء يصلك بهذا العالم الذي انعزلت عنه كل الانعزال.

ـ لدي جهاز راديو.

ـ حقاً؟ أين هو؟

حاولت أن تتذكر المرة الأخيرة التي استمعت فيها إلى الجهاز فعجزت عن ذلك.

ـ انه في مكان ما في المنزل.

ـ الا تهتمين أبداً لما يجري في العالم.

من تحطم عالمه ودنياه لن تهمه أخبار العالم كله ولن يكترث للنشرة الجوية ما دامت عنده نافذة يطل بها على الخارج كما لن يأبه

www.elromancia.com

للاخبار المحلية من أنباء سياسية أو قانونية أو رياضية ما دام في أقصى العالم منعزلاً.

أجابته بعد طول تفكير وقد وجدته مصيباً في قوله عن انعزالها.

ـ لا.. لا اظن انني منعزلة.

ـ لقد تغيرت كثيراً.. فما الذي غيرك؟

ـ الحياة، كما اعتقد.

راقبها دوغلاس بصمت وهي تقف لتحضر حبتين من الاسبرين وتبتلعهما مع بعض القهوة. ثم قال :

ـ هذه ملاحظة غامضة جدا. فهلا تلطفت ووضحت قولك.

كان في صوته نبرة تهديد، لكنها ابتسمت.

ـ لا.. شكراً.

وعلى الفور امتدت يداه لتمسكا بها.

ـ ماذا حدث عندما هربت من لندن؟

وحدقت إليه فرأت التصميم العميق والبرودة على وجهه :

ـ حسن جداً.. إن كنت تريد المعرفة فسأطلعك عليها. كان ذاك الذي هربت معه شخص من الماضي، ولأنني ما زلت مغرمة به فقد انتقلت لأسكن معه.. هذه هي المسألة بكل بساطة.

بقيت عيناه ثابتتان على وجهها.

ـ هل أحضرته إلى هنا؟

ترددت لحظات، وعلمت انه من السهولة دحض كذبتها :

ـ لا.. لقد عشت معه في منزله، في باريس.

ـ هل هو.. فرنسي؟

ـ اجل.

ـ وماذا حدث لعلاقتكما؟

هزت كتفيها :

ـ كما حدث من قبل.. لم تنجح.

ـ ولماذا لا؟

نظرت اليه بارتباك، لأنها لم تهيء نفسها للإجابة عن سؤال كهذا.

ـ ولماذا تفشل الأمور عادة؟ لم نكن متجانسين عاطفياً. كما كنا نرغب في الحصول على أشياء لا نستطيع ان نعطيها.

قال لها بسخرية :

ـ هل كنت متجانسة جسدياً؟

ـ هذا الجزء من العلاقة كان على ما يرام، كما أعتقد.

ـ حسنا.. أنت أدرى !

حنقت من سخريته اللاذعة، فنظرت اليه بغضب :

ـ اجل.. علاقتنا الجسدية كانت رائعة، إذا كنت تريد ان تعرف.

ـ لابد انه رجل كامل.

ـ اجل.. هكذا كان.

ـ وما اسمه؟

ـ ماذا؟

ـ لقد سألتك ما اسمه؟ أم انك لا تعرفينه.

ـ بالطبع أعرفه، ولكنني لا أنوي أن أذكره أمامك.

سأل مغيراً مسار الحديث :

ـ هل تركته أنت، أم هو تركك؟

ـ لقد تركته انا !

ـ وكم أمضيت معه.. لتجدي ما إذا كان متجانسا معك هذه المرة؟

ـ حوالي الثلاثة اشهر.

www.elromancia.com

ـ ولماذا لم تعودي يومها إلى لندن؟
ـ كنت قد أجرت شقتي، ولم يعد لي مكان أعيش فيه.
ـ إذاً لقد تركته وأتيت إلى هنا؟
ـ اجل. .
ـ لكن لماذا جئت إلى هذا المكان الذي لا يلائم نمط حياتك.
حاولت الهاءه عن المتابعة فقالت وكأنها تهاجمه :
ـ وكيف لك أن تعرف نمط حياتي؟
لم يلتقط دوغلاس الطعم، بل تابع سؤاله :
ـ حسن جداً، لقد قدمت إلى هنا لتلعقي جراحك. . لكنني لا افهم سبب انعزالك او هزالك البادي للعيان.
أكملت سالي شرب قهوتها، وتحركت لتقف، لكنه وضع يده على ذراعها ليمنعها.
ـ لم تجيبي عن سؤالي.
تنهدت تنهيدة مبالغاً فيها.
ـ كنت أحاول لملمة اشلاء قلبي المحطم من جراء تلك العلاقة الفاشلة ولأنني لم أرغب في مواجهة الناس، أردت ان اكون وحدي لأستعيد ثقتي بنفسي، وأقرر ما اريده من الحياة.
ـ هل فعلت ذلك من قبل؟
ـ من قبل؟
ـ لقد قلت إن هذا الرجل، الفرنسي، كان حبيباً سابقاً، وانكما كنتما على علاقة قبل ان تنفصلا.
ـ اوه. . اجل. . حسناً، في البداية، كنت اعلم انه لم يكن جاداً. ولكن هذه المرة اعتقدت. . تأملت أن تستمر العلاقة. وعندما فشلت كنت مستاءة جداً، وهذا أمر طبيعي.
ـ اوه. . طبعاً، ولكنك بالطبع اصبت في تركك إياه.

ـ اجل.
ـ كاذبة !. . لماذا لا تخبريني الحقيقة.
ـ ال. . الحقيقة؟
ـ اجل. . اعترفي بأنه استغلك ثم رماك عندما سئم منك.
ـ لا. . انا. .
أرادت الاعتراض لكنها عدلت عن ذلك إذ من الافضل ان يعتقد ما يريد.
طاطأت رأسها وكأنها تثبت قوله.
ـ عظيم جداً، ها نحن نقترب من الحقيقة التي توضح سبب اختبائك في هذا المكان، فكبرياؤك الجريح دفعك إلى اعتزال الناس لحفظ ماء الوجه.
رفعت سالي رأسها ببطء ونظرت إليه، ثم قالت :
ـ هل تمكن كبرياؤك من تقبل فكرة انفصالنا.
ابيض وجهه من جراء قولها.
ـ لقد اصبتني؟
تقدم نحو النافذة ليتأمل الطبيعة حوله لكنه عاد ليقف قرب الطاولة :
ـ يبدو أننا معاً على المركب نفسه.
ـ أجل.
ـ يبدو أنك تحملت كثيراً.
ـ وانت كذلك على ما يبدو.
ـ ربما بسبب ما فعلته بي.
ـ لم يكن هناك طريقة أسهل أو ألطف.
ـ ليس صحيحاً ما تقولينه، هناك دائماً طريقة لا تجرح النفس في الصميم.

www.elromancia.com

جلس، ثم أخذ ينظر اليها، وكأنه يحاول قراءة أفكارها. تحملت سالي نظراته لبضعة دقائق، ثم احنت رأسها خشية ان يكتشف كذبها.

ـ ومتى ستعودين إلى لندن؟

تنفست الصعداء لأنه صدقها أخيراً :

ـ عندما أشعر بأنني مرتاحة.

ـ ستنطوين على ذاتك أكثر فأكثر إن بقيت في عزلتك هذه.

ـ منطوية؟

إذا كان هذا يعني ان لا تقول لاحد الحقيقة، فليكن، وقالت له بجهد :

ـ لا. . بالطبع لا. فقد احتجت إلى وقت للتغلب على علاقة الحب المحطمة. هذا كل شيء.

ـ علاقة حب؟ ألا يعد ما كان بيننا علاقة حب؟

أدركت غلطتها، فقالت بسرعة :

ـ كان هذا أمراً مختلفاً.

ـ مختلفا. . وكيف؟

ـ هكذا كان، وهذا كل شيء.

ـ فهمت. . انت تعنين انها كانت علاقة لطيفة، غير مثيرة أليس كذلك؟

وقف ودفع كرسيه إلى الوراء فوقفت.

ـ لقد أخطأت في شأنك كنت أعتقد ان علاقتنا متينة، متبادلة لكن العكس كان بانتظاري، فهل كنا مخادعين.

لم تستطع أن تدعه يعتقد انها كانت تخدعه، فمهما بلغت درجة الأكاذيب التي ادعتها، لكنها لم ترد ان تضيف هذه الكذبة إلى تلك السلسلة الطويلة، لذلك أمسكت ذراعه بيدها التي ارسلت

رعدة وارتعاشة في اطرافه، لكنه مع ذلك لم يلتفت اليها.

ـ لم أخدعك يوماً. فكيف لي أن أدّعي حبك دون أن تكتشف زيف مشاعري وأنا لا أعتقد ان هناك امرأة تستطيع تزييف ما كنت أحس به.

كانت عيناها مظلمتان من الألم وهي تتحدث من أعماق قلبها :

ـ كانت علاقتنا شيئاً مميزاً.

استدار لينظر إليها :

ـ فلماذا إذاً. . . ؟

خلال لحظة عادت سالي إلى الكذب.

ـ لقد كانت علاقتنا رائعة، لكنها ما كانت لتستمر لأنها لم تتعد كونها حلم جميل، فبعد أن ذهبت، واجهت الحقيقة، وعلمت أنني غير قادرة على الزواج فأنا ما زلت في مقتبل العمر ومن الصعوبة أن أستقر، أنا. . . أنا. . . لم أرغب في الارتباط على هذا النحو. لذلك عندما حضر بيار. . ذهبت اليه لأهرب من الزواج قدر المستطاع.

ـ وها أنت قد وصلت إلى هذا. فماذا حدث؟ هل هرويك اليه ربطك اكثر؟ وهل وقعت رأساً على عقب في الحب؟

ـ شيء من هذا القبيل.

ـ إذاً، لا يمكن ان تكوني قد احببتني حقيقة. ليس حباً حقيقياً، وإلا لما نظرت إلى رجل آخر.

ـ ربما كنت أحب الحلم.

ـ ربما كنت هكذا.

وتقدم منها ليمسك ذراعيها.

ـ ولكنني لم أكن أحب الحلم. لقد أحببتك، وأردتك. . . لتبقي معي العمر كله.

www.elromancia.com

ونظر إليها وعيناه غائرتان حائرتان، في اعماقهما رغبة اكيدة لم يستطع مقاومتها فكان ان جذبها إليه يعانقها بوحشة وقسوة، فلما حاولت سالي مقاومته أو الوقوف جامدة بين ذراعيه أحست بألسنة الرغبة التي دفنتها الأشهر الماضية تستعر باعثة فيها الحياة من جديد دافعة إياها إلى التأوه. فلما حاولت مقاومته للمرة الأخيرة وضع يده على شعرها فأفلت رباطه لينسدل هو حراً طليقاً ولتبقى هي سجينة بين ذراعي دوغلاس.

كان جسده يرتجف لأنه طالما انتظر هذه اللحظة، وطالما عاشها في أحلامه آلاف المرات، كان يعانقها بشغف كبير عناقاً متعطشاً متطلباً نقلها من الحاضر إلى الماضي لا من الماضي إلى الحاضر كما يحدث عندما كان يضمها ناقلاً إياها إلى مستقبل ذاخر بالحب والسعادة، كانت بين يديه كرضيع تحنو عليه أمه، كانت انفاسه متهدجة وصدره لاهثاً وقلبه خافقاً فتابع معانقتها ويداه تنزلقان ببطء إلى كتفيها إلى صدرها. كانت هذه اللحظات حلماً انتظرته منذ زمن، لكنها الآن وقد دنت يده منها اطلقت صرخة رعب ودفعته عنها بعنف، مذعورة خائفة، تمتد يدها لتغطي صدرها.

ـ لا تفعل هذا! ابتعد عني... لا تلمسني أبداً!

وكانت الكلمات تخرج صراخا محموما في وجهه، ثم استدارت لتهرب إلى الفناء الخارجي، واستطاعت ان تفتح البوابة، وتركض بكل قواها نحو منزل روجر، وشعرها يتطاير في الهواء حول رأسها.

هل خمّن؟ هل عرف؟ واستندت إلى عمود سياج حديقة روجر، تشهق لتتنفس، وعيناها تتجهان ناحية منزلها خوفاً لترى ما إذا كان دوغلاس قد لحق بها. وكان قد خرج من المنزل ليقف عند البوابة، يراقبها دون ان يلحق بها. وشهقت بارتياح وتابعت طريقها

إلى الباب، ثم دخلت مطبخ روجر.

ـ روجر.. روجر.. هل أنت هنا؟

وفتح الباب بسرعة.

ـ أنا في المكتبة.. هل انت بخير؟ هل أذاك؟

ـ لا.. انا بخير.. صديقتي، ألم تتصل بعد؟

ـ لم تتصل بعد، وإلا لأوصلت لك الرسالة.. انت تعرفين هذا.

وحاولت ان تبتسم:

ـ اجل.. انا... انا فقط متشوقة إلى سماع أخبارها وزيارتها. آسفة على ازعاجك.. ارى انك مشغول.

ـ لست مشغولاً جداً.. هل خرجت دون معطف؟ الأفضل ان تقتربي من النار، لقد حان لي أن أستريح قليلاً. اتريدين بعض القهوة؟

هزت رأسها شاكرة، ثم جلست في المقعد قرب المدفأة في المطبخ، وجسدها لا يزال يرتجف.. وملأ روجر الابريق بالماء.

ـ هل توصلتما إلى حل أنت وصديقك؟

وكان قد التفت ليسألها، فشاهدت عينه.

ـ اوه... روجر.. عينك!

ـ إنها كدمة حقيقية.. أليس كذلك؟ فخطيبك هذا يوجه لكمات قوية حقاً.

ـ إنه خطيبي السابق.

ـ حسناً، كائناً من كان، يبدو انه سينضم إلينا لشرب القهوة.

وضعت قدميها تحتها فوق المقعد، وحاولت ان تسترخي، بينما دق دوغلاس الباب بسرعة ودخل، ونظر اليها بغضب، دون شفقة او كراهية، ثم استدار إلى روجر.

ـ لقد تركت أمس صندوق أدواتك الذي أحضرته لك لأنك قد تحتاجه.

ـ شكراً. . أتريد القهوة؟

ـ أرجوك. . مرّة دون سكر.

ونظر إلى سالي :

ـ تبدين وكأنك في بيتك.

أجابه روجر قبل ان تتمكن من الكلام.

ـ سالي على الرحب والسعة هنا في أي وقت تشاء. وهي تعرف هذا. كانت تأتي إلى هنا منذ كانت فتاة صغيرة، وكانت تبقى مع عمتها طول العطلات.

قطب دوغلاس جبينه :

ـ وهل عرفتها منذ هذه المدة الطويلة؟ هل تعيش هنا وحدك.

ـ منذ توفيت زوجتي وطفلي.

نظرا إليه معاً. . سالي تتساءل ما إذا كان هذا الحديث يؤلمه حتى الان ودوغلاس يقول :

ـ أعتذر عما سببته لك من ألم.

ـ يبدو انك قد خرجت من المعركة أفضل حالاً.

بعد ان جهز القهوة قدم فنجاناً لسالي ثم جلس بعد ان وضع كوبين كبيرين على الطاولة، بعد لحظة تردد، جلس دوغلاس إلى جانبه، فسأله روجر :

ـ هل أتيت من مكان بعيد؟

ـ من لندن.

ـ ماذا تعمل هناك؟

ـ أنا مهندس.

توقعت سالي ان يستاء دوغلاس من اسئلة روجر، ولكن

العكس كان صحيحا، إذ شرع الرجلان بالحديث والمناقشة بينما جلست هي مصغية إلى دوغلاس الهادىء وإلى روجر الذي أصبحت تعرفه جيدا بعد هذه العشرة في الأشهر الماضية وكانت قد لاحظت صراحته المتناهية وعدم إخفائه مشاعره كما لاحظت نغمة الاحترام في صوته عندما ذكر دوغلاس ان هوايته الرسم.

سمعت اسمها يتردد، فالتفتت لتجد دوغلاس يقول :

ـ لقد رسمت صورة لسالي. وكنت على وشك انهاء الاخرى. . لكنها تركتني قبل أن أنهيها. وفي الواقع لقد أحضرتها معي. . عليك أن تراها.

ورن جرس الهاتف في المكتبة فاعتذر روجر وذهب ليرد، أما سالي فبقيت مشيحة نظرها عنه، فكان ان قال لها ساخراً :

ـ سوف تضطرين إلى مواجهتي في النهاية.

عاد روجر ليقول :

ـ المخابرة لك يا سالي. . إنها صديقتك من لندن.

قفزت واقفة، ركضت إلى المكتب وأغلقت الباب وراءها.

ـ فيليسا؟

ـ اجل. . ماذا حدث عندك؟ من رد على الهاتف؟

ـ إنه جاري. . متى تستطيعين القدوم؟ انا بأمس الحاجة اليك، دوغلاس هنا، ولم أستطع التعامل معه وحدي.

ـ عودي إلى لندن واتركيه وحده.

ـ لا أستطيع. . انه يمنعني. . لقد عاد لينتقم يا فيليسا.

ـ وهل الأمر بهذا السوء؟

ـ بل اسوأ مما تتصورين.

ـ حسنا سألغي موعدي هذه الليلة وآتيك في القريب العاجل.

ـ اوه يا فيليسا. . انت ملاك !

www.elromancia.com

- سأحضر بالقطار، فانتظريني على المحطة.

اتفقتا على موعد الوصول حيث ستلتقيان في محطة يورك عند المساء. اعادت السماعة وهي تشعر بالارتياح، وما إن عادت إلى المطبخ حتى استدار الرجلين نحوها فقالت :

- كانت هذه فيليسا التي ستقدم الينا هذا المساء.

فقال دوغلاس بسخرية :

- لقد استجابت سريعاً إلى نداء الاستغاثة.

تجاهلته، فاستدارت إلى روجر قائلة :

- شكراً للقهوة.

فهز رأسه ووقف :

- سأرافقكما لأشاهد اللوحة.

أخذت تفكر أثناء صعودهم التل باتجاه المنزل، بما إذا كان عليها السرور أو عدمه لزيارة روجر الذي كانت سعيدة بحمايته لها. لكنها لم تكن واثقة بأنها تريده ان يشاهد اللوحة التي تبدو فيها نصف عارية.

عندما وصلوا إلى المنزل فتح دوغلاس باب غرفة الجلوس ليدخل روجر أولاً، وكان على وشك اللحاق به عندما قالت سالي :

- عليك ان تنتقل من غرفة الضيوف.

- انا دهش لأنك لم تطلبي مني المغادرة ثانية.

- وهل كنت لتذهب؟

- لا.

- ما الفائدة إذاً؟

وصعدت سالي إلى الطابق العلوي وشغلت نفسها بتغيير الشراشف في غرفة الضيوف، غير آبهة بما يفكر به هذان الرجلان

اللذان يتأملان اللوحة بمنظارين مختلفين. وعندما انتهت، دخلت غرفة نومها حيث مشطت شعرها، ووضعت القليل من الزينة على وجهها، ثم ارتدت سترة طويلة من شعر الجمل، وقبعة.

عندما نزلت إلى غرفة الجلوس، نظرت إلى روجر، الذي وجدته ينظر اليها حائراً، فكيف للنساء المحتشمات الوقوف على هذا النحو أمام رسام.

سالها دوغلاس :

- هل أنت ذاهبة إلى مكان ما.

- أجل.. إلى يورك.. فسأشتري أولاً بعض الحاجيات ثم اذهب لاستقبال فيليسا على المحطة.

- انتظريني، سأرتدي معطفي.

- لا تزعج نفسك لأنني استطيع تولي الأمور وحدي.

فضحك دوغلاس :

- إن ظننت أنني سأتركك تبتعدين عن ناظري، فأنت لا ريب مجنونة. أتتصورين أنني سأصدق كلامك؟ فما الذي يؤكد لي انك لن تفري هاربة بالقطار.

- ليس لدي مكان آخر أهرب اليه.

حدقت فيها عينان حائرتان ووجه متهجم، بينما صوته يقول بسخرية :

- من يسمع قولك يشفق على البائسة المسكينة أمامه، لكنني بما أنني أعرفك جيداً، فلن أقع في فخ أحابيلك الانثوية الجميلة.

عندما ذهب لإحضار معطفه سألها روجر :

- هل ستكونين آمنة معه؟

- نعم على ما اعتقد.

ساعدها روجر على ارتداء معطفها، ثم أمسك ذراعها

للحظات.

- هل تخبريني لماذا هربت منه؟

ترددت، لكنها عندما لاحظت حركة دوغلاس في الطابق العلوي قالت :

- لا أريد هذا. . ولكنني سأفعل إذا اصريت على ان تعرف.

- وهل ذكرت له السبب؟

- لم أخبره الحقيقة إلى الآن بل انني لم أخبر أحداً بها.

كان ينظر إلى الظلال في عينيها الخضراوين، فشاهد الحزن العميق فيهما. لذلك قال بخشونة :

- لا تقولي شيئاً إن كنت لا تريدين.

نزل دوغلاس وهو يقول لها بعد ان اقفلت الباب إثر توديعها روجر :

- سنذهب في سيارتي.

لم تجادله، فلم تكن تشعر برغبة في قيادة السيارة طوال هذه الطريق بعد ليلة أرقة. وخدع النعاس جفنيها فاستسلمت إلى نوم متقطع مضطرب، استيقظت خلاله عدة مرات مذعورة وهي تتمتم كلمات مبهمة مشتتة، وعندما صحت أخيراً مجفلة وجدت ان يد دوغلاس على كتفها تهزها.

- ماذا؟ ما الخطب؟

- لقد وصلنا. . تبدين وكأنك كنت في كابوس.

- اوه. . صحيح. . هل قلت شيئاً؟

- لا شيء استطعت أن أفهمه، انما بدوت خائفة من شيء وبقيت تقولين . . لا . . و. .

- وماذا قلت أيضاً.

التقت عيناه الرماديتان الحائرتان بعينيها.

- لقد بقيت تذكرين اسمي.

لم تجد سالي ما تقوله لذلك أشاحت وجهها بسرعة، وجمّعت اغراضها ثم خرجت إلى السوق حيث بقيت فيه إلى ان اقفلت المحال عند الخامسة والنصف عصراً. ولكن بما أن أمامهما ساعة من الانتظار قبل وصول قطار فيليسا فقد اقترح دوغلاس الذهاب إلى مطعم ما لتناول شيئاً من الطعام.

وجدا مكاناً يقدم الشاي جلسا فيه دون ان يتبادلا الحديث، فقد كانا يأكلان السندويشات ويشربان في صمت مطبق يتخلله التصلب والتوتر بينما كان الزبائن حولهما يتحدثون ضاحكين. فقال لها بحدة :

- لقد اثبت هذا الصباح أنك لست محصنة ضدي. ووجود فيليسا لن يشكل فارقاً لأنني سأحصل على ما اريد، مهما طال الزمن.

أجابت متجهمة وهي تهز رأسها :

- ستبقى فيليسا معي ما دمت أحتاجها.

- لا، بل قولي ستبقى إلى أن أستسلم.

- اجل.

مال إلى الأمام وهو يقول بحدة :

- لن يكون لك ما تريدين. بامكانك الاختباء خلف روجر او فيليسا ولكنني سأبقى هنا، انتظر. وسأنتظر دوما يا سالي، تذكري هذا.

عند السابعة، قصدا المحطة، وعندما وصلا خرجت سالي من السيارة دون ان تنتظر وراحت تسير على الرصيف دقائق حتى وصل القطار الذي خرجت منه فيليسا على الوقت تماماً. وهي تبدو رائعة بأناقتها الرفيعة وثيابها الثمينة وشعرها المجعد البراق.

www.elromancia.com

- فيليسا!

وأسرعت لتحضنها وقد ترقرقت دموع الفرح والراحة من عينيها.

- أوه.. كم أنا سعيدة لقدومك.

- وأنا كذلك. لقد كانت رحلة متعبة.

التفتت فيليسا إلى الرجل الذي كان ينزل لها حقائبها، وبدا أنها قد اتت معها بالكثير منها.

- شكراً لك. هذا لطف كبير منك.. لو أمكنك حملها لي إلى الخارج...

وتقدم دوغلاس اليهما:

- لا حاجة إلى ذلك، سأحملها بنفسي.. مرحبا فيليسا.

- دوغلاس! تسرني رؤيتك. لقد ذكرت لي سالي انك هنا.

- انا على يقين من انها قد أخبرتك.

التقط الحقائب، وسط نظرة فيليسا الدهشة، وتساؤلها الصامت لسالي التي تمتمت:

- سأخبرك فيما بعد.

لكن الخلوة لم تكن للفتاتين، إلا في المنزل عندما أخذت سالي فيليسا إلى غرفتها. حيث أقفلت الباب، فقالت فيليسا:

- عظيم، الجو دافىء هنا، لقد كنت أخشى ان يكون بارداً لذا أحضرت معي حملاً من الكنزات الصوفية.

جلست فيليسا على السرير، جاذبة سالي لتقعد قربها.

- انت حقا تمرين في وقت عصيب؟ منذ متى ودوغلاس هنا؟

- منذ البارحة فقط.

- حسناً، إذا كان يستطيع فعل كل هذا بك في يوم واحد، فمجيئي إلى هنا رحمة كبيرة.. والآن اخبريني كل شيء.

- كما سبق واخبرتك.. لقد وجدني دوغلاس الذي يريد الانتقام مني وكان من المستحيل إبعاده إلا بواسطتك.

- فهمت.. انه يسعى وراء ذلك النوع من الانتقام، أليس كذلك؟ حسنا، لا استطيع القول إنني ألومه يا سالي، لقد كان يحبك إلى الجنون، عندما قصدني باحثاً عنك بدا يائساً إلى حد كبير.

- أعلم.. إنها غلطتي.. لقد حسبتُني قد اخفيت آثاري كلها. لكنه رغم ذلك وجدني.

- أيبلغ فيك الحد إلى التخلي عن مستقبلك المهني؟ قولي لي لماذا تخليت عنه؟

- هذا لم يعد مهماً الآن. لقد اوضحت له ولكنه لم يكتف به.

- أي إيضاح؟

فتنهدت سالي.

- لقد اختلقت له قصة أملت ان تكون كافية لدفعه إلى الذهاب من هنا. ولكنه لم يفعل.

- ولماذا تختلقين له قصة. ولماذا لم تخبريه الحقيقة؟ بل لِمَ لا تخبريني الحقيقة؟

كان ما تطلبه فيليسا احب شيء إلى قلبها، لكن صديقتها التي تعرفها جيدا ستحزن حزناً شديداً، لن تقدر على اخفائه عن عيني دوغلاس وإن حاولت.

- سأخبرك إن رحل دوغلاس الذي قد يجبرك على البوح له بما تعرفين، أما الآن فيجب ان تعرفي انني قد ادعيت الهرب مع حبيب فرنسي قديم.

- وهل يفترض أن أعرف هذا الفرنسي؟

- قد تساعدينني إن قلت إنك التقيت به.

www.elromancia.com

- وما اسمه المزعوم؟

حدقت سالي اليها بذهول.

- يا الهي.. لقد نسيت ما سميته.. بول كما أظن.

فضحكت فيليسا.

- حسناً، يستحسن أن يكون الاسم صحيحا، أما الآن فاطمئني من دعمي لك ليس ذلك فحسب بل سأسعى إلى إبعاد هذا الذئب عن بابك هذه الليلة. أتظنين أنه سيذهب بعد ان جئت؟

- كنت آمل ذلك، لكنه أكد أنه باق إلى أن أبوح له بالحقيقة.

- حسناً، سنعسر الامر حتى يفرّ هاربا. لا تقلقي، لن أتركك وحدك معه، ولن تتاح له الفرصة للقتال معك ثانية.. او لأي شيء آخر.

- شكراً يا فيليسا، انت لا تعلمين مدى اطمئناني إلى وجودك.

- هذا من دواعي سروري، أما الآن فالأفضل أن أفرغ حقائبي.

وقفت، ولكن سالي كانت تنظر اليها، وتعبير متوسل في عينيها الخضراوين.

- ما بالك؟

- هناك شيء آخر أريده منك.. أنا اطلب الكثير، وأعلم هذا، ولكن لو انك...

- ما الأمر؟

أمسكت سالي بيدها، وضغطت عليها بقوة وهي تقول غصباً عنها :

- أريدك ان تحميني من دوغلاس، ولكنني أريد منك شيئاً آخر.. أريدك أن تغويه...

٧ - نسيت كيف تضحك!

- ماذا؟ أتريدين ان اغو...

- هس.. سيسمعك.

وضعت سالي يدها بسرعة على فم فيليسا، ثم أردفت :

- إنها الطريقة الوحيدة لإبعاده.

- لكن هذا جنون. إنه يحبك انت، ولن ينظر إلى امرأة ما دمت موجودة.

- بل سيفعل، فلأنني موجودة، سيتمسك بهذه الفرصة ليدفعني إلى الغيرة والألم.

هزت فيليسا رأسها.

- اظن انك مخطئة فهو لن يؤذيك.

- نعم هو ما كان ليؤذيني في الحالات العادية، أما في هذه الظروف غير العادية بعد الألم الذي عانى منه فسيتمنى أن يؤلمني ويؤذيني.

- هذه مؤامرة مجنونة. ماذا حدث لكما بحق الجحيم؟ كنتما حبيبين رائعين متفاهمين إلى ان اختفيت فجأة لاجئة إلى هذا المكان الذي لا يعلم سوى الله ما هو؟ فما الذي ارتكبه بحقك؟

- لا شيء.. الأمر لا يتعلق به.. صدقاً يا فيليسا، انا لم اختف بسبب دوغلاس.

- هل هو شاذ، أو أي شيء من هذا القبيل؟

- لا.. بالطبع لا.. إنه مستقيم جداً. بالله عليك ساعديني

www.elromancia.com

فقط. هل ستنفذين ما طلبته منك؟ هل ستحاولين إبعاده عني؟

ترددت فيليسا. . ثم قالت :

ـ سأفكر بالأمر. . اعطيني بعض الوقت. . مع انني اظن الأمر مستحيل بوجودك.

ابتسمت سالي متعبة.

ـ هراء. . يمكنك إغواء اي رجل تريدين، في أي وقت تشائين.

حذرتها فيليسا ضاحكة :

ـ حسناً سيكون لك ما تريدين، أما الآن فساعديني على إفراغ حقائبي بسرعة لئلا يحسبنا دوغلاس شاذتين.

عندما نزلتا إلى الطابق الأرضي، تبعتا رائحة الطعام الزكية التي قابلتهما فوجدتاه يقف قرب الفرن وهو ينظر اليهما بسخرية وقال :

ـ هل انهيتما حديثكما الحميم أخيراً؟ بدأت اظن انني سآكل كل هذا الطعام وحدي.

تقدمت فيليسا منه، وهي ترفع رأسها لتتنشق رائحة الطعام الزكية :

ـ يا لهذه الرائحة الشهية، أكاد أموت جوعا؟ ما هذا؟

ـ شرائح لحم بقر بالصلصة. . اجلسا وسأصب لكما.

قالت فيليسا :

ـ هل أساعدك؟

لكن دوغلاس كان قد أعد المائدة، ووضع طبقا مليئا أمام سالي فرفعت نظرها اليه قائلة :

ـ لكنني لن أستطيع أن آكل هذا كله.

تجاهلها، وقال لفيليسا :

ـ إنها حيلة جداً، ألا تظنين ذلك؟ تكاد لا تذوق الطعام.

انزعجت سالي من كلامه وقالت :

ـ لقد فقدت شهيتي منذ أتيت إلى هنا.

اخذت فيليسا تنقل نظرها منها اليه ثم قالت :

ـ انظرا، إذا كنتما تريدان المشاجرة فلكما ما تريدان، لكن افعلا ذلك بعد الطعام لأن الشجار يسبب لي عسر هضم.

ضحك دوغلاس :

ـ آسف، انا لا أريد افساد شهيتك أيضاً.

ـ عظيم جدا. . هل تطبخ عادة بنفسك؟

نجحت في جره إلى حديث طويل يدور حول الطعام دون ان تشاركهما سالي الحديث لأنها أرادت ان تظهر له حيوية فيليسا وانطواءها هي، لكن دوغلاس رغم ذلك كان ينظر اليها من حين لآخر حيث كانت عيناه تظهران حيرته إلى ان تجذبه فيليسا ثانية إلى الحديث.

ذهب الجميع إلى النوم بعد ان نقل دوغلاس أغراضه من غرفة الضيوف إلى غرفة الجلوس حيث اتخذ الأريكة فراشاً له. عندما أوت سالي الى فراشها توقعت ليلة اخرى من السهاد. لكن العكس هو ما حدث فقد غطت في نوم عميق ربما بسبب إرهاقها الشديد او بسبب اطمئنانها لوجود فيليسا.

كانت سالي أول من نزل إلى المطبخ في الصباح التالي. بعد ان استحمت بسرعة غيرت ثيابها ثم هيأت لنفسها كوباً من القهوة ثم خرجت إلى الحديقة حيث جلست فوق مقعد متمتعة بشمس الصباح. ولم يمض وقت قصير حتى أقبل دوغلاس الذي راقبها

www.elromancia.com

بضع لحظات وهو يقف بباب المطبخ واضعاً يديه في جيوبه.

ـ هل تمانعين في الانضمام اليك؟

تنحت مبتعدة لتترك له مكانا يجلس فيه على المقعد، لكنه رغم وجود مسافة كبيرة، تعمد الجلوس قربها وكتفه يلامس كتفها. كان يرتدي بنطلون جينز وكنزة واسعة فوق قميصه. كانت تنبعث منه رائحة عطر الحلاقة الذي جعلها تحس بقوته وسطوته ورجولته التي حركت مشاعرها وعواطفها التي ملأت كيانها، كان الشوق اليه أقوى منها لذلك اشتدت قبضتها على كوعها حتى غدت مفاصل أناملها شفافة جدا في هذه اللحظات. أغمضت عينيها وكأنها تجد شمس الصباح قوية عليها ولم تلبث ان وقفت بسرعة.

ـ ماذا تريد من الطعام؟

مد يده وأمسك يدها :

ـ لا تذهبي الآن. كنت تمتعين بأشعة الشمس.

كان صوته على غير عادته أخيراً، لطيفاً رقيقاً حتى كادت ترضخ لما قاله فتجلس قربه وكأنهما ما زالا حبيبين يستمتعان بوجودهما معا. لكنها انتزعت يدها من دفء يديه، وهزت رأسها رافضة.

فوقف دوغلاس غاضباً، ليقول لها والشرر يتطاير من عينيه :

ـ ماذا فعل بك. . ذلك الرجل؟ لا تقولي انه لم يفعل شيئاً لأنه من المستحيل أن تصبحي على هذه الحالة بسبب علاقة حب تحطمت.

لاحظت سالي، رغم غضبه الشديد شيئاً من الاهتمام في صوته ولكنها قالت :

ـ انت مخطىء. . فأنا على ما يرام.

استدارت لتبتعد عنه، فشاهدت فيليسا تنظر اليهما من نافذة غرفة النوم، فلوحت لها، وردت فيليسا :

ـ مرحباً، يا لهذا الصباح الجميل. . سأراكما تحت بعد عشر دقائق.

كانت سالي تحاول جهدها البقاء بعيدة عن دوغلاس لكن ذلك كان صعب في منزل صغير لا يضم سواهم. عند المساء اقترحت سالي أن يذهبا إلى الحانة في القرية ليشربوا بعض المرطبات. .

ـ نستطيع اخذ روجر معنا. .

قالت لفيليسا :

ـ انه جاري، وأنا واثقة من انه سيعجبك.

ـ لا تقولي هذا، فقد اكرهه عندما أراه، لكن لا بأس سأتبع توصيتك.

ذهب روجر معهم بكل ترحاب، وقد غمره الإعجاب بفيليسا. وعندما وصلوا إلى الحانة، ذهب الرجلان ليشتريا الشراب تاركين الفتاتين على طاولة قرب الموقد. سألتها فيليسا في الحال :

ـ كيف حصل روجر على هذه العين السوداء؟

ـ لقد تشاجر هو ودوغلاس يوم وصل إلى هنا.

ـ وكيف حصل هذا؟

ـ وكيف تظنين؟ لقد ظن روجر ان دوغلاس كان يهاجمني، فجذبه عني، وهكذا تقاتلا.

ـ يا الهي. . ولكن لا يبدو على روجر أنه من النوع الذي يقاتل.

ـ انه من يوركشاير. . يبقى هادئاً تماماً إلى ان يدفعه أحد ليثور.

فضحكت فيليسا :

ـ وهل يمكن أن يثور الآن. علي ان اتذكر ذلك.

ابتسمت سالي :

ـ هاي. . من المفترض أن تغازلي دوغلاس لا روجر.

ـ لم اوافق على الامر تماما، كما انني لا أجد لنفسي فرصة وهما معجبان بك على هذا النحو.

وبفعل ساحر انقلبت السهرة إلى المرح. فقد بدأت فيليسا تسلي الرجلين، خاصة روجر الذي تعالت ضحكته من جراء قصصها الشيقة. أما دوغلاس فقد بدا أيضاً مسروراً لكن عينيه غالبا ما اتجهتا إلى سالي التي جلست هادئة في مقعدها. عند منتصف الليل خرجا من الحانة حيث لفهم الليل الادهم والقمر المنير بينما عبقت الطبيعة بأريج الربيع الواعد بالقدوم. قالت فيليسا :

ـ أريد ان اقطع النهر فوق الحجارة.

ـ هذا اسمه غدير. . وسوف تقعين وتكسرين ساقك لو انزلقت في هذا الكعب العالي.

فضحكت فيليسا :

ـ يجب على احدكم حراستي.

قالت كلماتها وهي توجه عينيها إلى دوغلاس الذي قال لها :

ـ إذا كنت تظنين أنني سأرمي نفسي وراءك في الماء إذا وقعت، فأنت مجنونة.

فتنهدت فيليسا.

ـ كم انت نبيل مع النساء!

فعرض روجر عليها نفسه :

ـ سأتقدمك.

فكان أن كافأته بابتسامة رنحته.

وقفت سالي على الضفة بجانب دوغلاس، تراقب روجر وفيليسا التي اوشكت على الوقوع مراراً وكانت سالي في كل مرة تشهق برعب لكنها تعود فتصفق ضاحكة عندما يمسكها روجر.

وعندما وصلا إلى الضفة الأخرى، استدارت لتذهب إلى الجسر، لكن دوغلاس اعترض طريقها قائلاً :

ـ هذه المرة الاولى التي أراك تبتسمين فيها كثيراً منذ ان وصلت إلى هنا.

فنظرت اليه، وهي على وشك الرد بحدة، لكنها شاهدت الكآبة ماثلة في عينيه، فقالت بحزن :

ـ الظروف لا تسمح لي بالضحك.

ـ لقد ظننتك نسيت الضحك.

أدهشتها الملاحظة، لأنها كانت صحيحة تقريباً، فالضحك لم يعد جزءاً من حياتها منذ زمن طويل. فتجاوزته، وذهبت إلى الجسر لتلتقي بروجر. بينما تركت فيليسا تنتظر دوغلاس، وقالت لروجر :

ـ هل تأتي لتناول الغذاء معنا غداً؟

فابتسم روجر مسروراً لكنه قال :

ـ علي ان اخرج إلى المراعي لأتفحص القطعان غداً.

ـ حسنا، فلتكن الدعوة للعشاء، وإن اردت نرافقك إلى المراعي للمساعدة.

ـ جميعكم؟

www.elromancia.com

- إذا رغبوا. . أنستطيع؟

- آي. . ولكن قولي لصديقتك المدللة أن تنتعل حذاء مناسبا.

عندما وصلوا إلى بوابة روجر ودعهم ثم تابع ثلاثتهم المسير باتجاه المنزل الريفي وهناك أخذت سالي شرابا ساخنا تاركة فيليسا ودوغلاس جالسين في غرفة الجلوس، تعمدت التأخير لتفسح لهما مجال الانفراد ولكن دوغلاس دخل المطبخ ليسألها عن التأخير. فقالت له :

- أنا تعبة، سأشرب فنجاني في الفراش. أرجو ان تأخذ كوب فيليسا اليها؟

- حسناً.

عندما صعدت فيليسا إلى غرفتها بعد بضع دقائق دقت باب سالي التي كانت قد خلعت ثيابها، والتي أسرعت إلى ارتداء ثوب واسع، قبل أن تفتح الباب، لتجد فيليسا تكشر في وجهها ساخرة :

- لقد تخلص دوغلاس مني ومن شرابي فهل أدخل لنتحادث؟

- طبعا. . اجلسي على هذا الكرسي.

رمت حذاء المنزل ثم صعدت إلى سريرها حيث غطت نفسها بالأغطية ثم شرعتا بالتحدث عن الأمسية عامة وعن روجر خاصة، متجاهلين المسألة الرئيسية إلى أن أنهت فيليسا شرابها متثائبة :

- لقد نعست، هل هناك خطة للغد؟

- سنخرج إلى المراعي مع روجر لنفتش عن الحملان المولودة حديثاً.

- حقاً؟ أعتقد أنني سأتمتع بالأمر.

وهذا ما حصل. فقد ذهب الجميع مع روجر في سيارته القديمة

«اللاندروفر» ثم خرجوا ليسيروا بين قطعان الخراف وهم يفتشون عن النعاج التي تحمل علامة ملكية روجر وعندما وجدا بعضاً منها دمغها روجر بلون خاص ليعلم الجميع أنها له، ولكن كان عليهم، ان يقطعوا مساحة كبيرة قبل أن يقتنع انه وجد كل الحملان. وخلال سيرهم في المراعي التصقت سالي قدر المستطاع بروجر لتعطي فيليسا فرصة التقرب من دوغلاس الذي بدا لا يمانع تقربها أبداً. فغالبا ما رأتهما مستغرقين في حديث طويل. ساعة الغداء جلسوا في زاوية مشمسة ليتناولوا الطعام الذي أعده روجر من الخبز والجبن والفاكهة.

بدأ الرجلان يتحدثان عن الرياضة. . فقالت فيليسا لسالي :

- فلنلتقط بعض الازهار.

- لا بأس لكن لا زهور في هذا الوقت من السنة (قالت تلك الكلمات وهي تنظر إلى صديقتها التي بدت ملامحها ترسل رسالة ما. فكان ان سارعت إلى الوقوف وهي تسأل).

- ما الأمر؟

- كنت أتحدث مع دوغلاس أو فلنقل كان يستجوبني ليعرف مدى المعلومات التي أعرفها عن صديقك المزعوم فكان ان اخبرته بما اطلعتني عليه حيث بدا مقتنعاً إلى ان ذكرت له الاسم الذي ذكرته لي والذي لم يكن صحيحاً، لذلك عندما انتبه إلى خطأ قولي ادعيت انني مخطئة.

انحنت لتلتقط زهرة حمراء من بين العشب الأخضر، واخذت تقلبها بين أصابعها، ثم قالت :

- سالي. . هناك شيء يحيرني. . . كيف وجدك دوغلاس؟

ـ لقد استخدم وكالة تحريات بحثت في يوركشاير عن كل من اسمه برايس وبعد ان قلت اللائحة التي بين يديه جاءني على غير توقع.

ـ يا الهي ! قولك هذا يؤكد شكوكي التي تظهر ان نيته في الانتقام سطحية، لأنه على ما يبدو يحبك بجنون ويريد استعادتك مهما كلفه الأمر، وأعتقد انه سيسامحك مهما فعلت لأنه لا يريد سوى البدء بحياة جديدة معك.

ـ لكن ما رأيته أنا لا يؤكد قولك.

ـ ظاهرياً لا يبدو ذلك، لكنني أعتقد انه يريد معاقبتك بطريقة ما تعويضاً عن الآلام التي مني بها، أنا لا اظنه رجلا قاسياً اطلاقاً، هو الآن غاضب من الطريقة التي رميته بها، لكنه في الواقع ما زال مغرما بك إلى حد كبير يجعله عاجزاً عن تركك. فلماذا لا تقولين له الحقيقة مهما كانت، لأنني على يقين من انه سيتفهم وضعك مهما بلغت درجته.

ابتسمت سالي ولمست يد فيليسا شاكرة :

ـ أشكرك على هذه النصيحة، لكنني لا أستطيع.

قالت كلماتها ثم حثت خطاها مبتعدة فلحقتها فيليسا :

ـ بما أننا صديقتان حميمتان فأنا على يقين من أنك ما قبلت به زوجاً لو لم تكوني مغرمة به إلى اقصى الدرجات. فلو كان في حياتك رجل آخر لما اقدمت على الخطوبة، كذلك انا اعتقد بل اؤمن بأنك ما زلت على حبه باقية. فلماذا كل هذا الغموض؟ بل لماذا تخليت عنه بهذه الطريقة المشينة؟

بعد تردد طويل، قالت سالي بصوت مرتجف :

ـ حدث شيء لا يمكنني التحدث عنه.

ـ حاولي.. اعطيه فرصة.

ـ لا أستطيع... أرجوك لا تطلبي مني المستحيل.

ـ بل أرجوك حاولي التحدث اليه لأنني لا احتمل حزنك هذا كما ان دوغلاس لا يحتمله أيضاً، لماذا لا تستطيعين إخباره؟

تنهدت سالي، ونظرت إلى المراعي ساهمة، ثم قالت :

ـ لو لم يكن فناناً لأخبرته.. انه «يعبد» الجمال والنقاء.

ـ يعبد؟ يا لهذه الكلمة الغريبة !

ـ عندما كنا يوماً نتحدث عن رحلة شهر العسل اقترح الذهاب إلى فلورنسا قائلاً : فلنذهب ولنتعبد في محراب الجمال. لكنني حين اعترضته بقولي ان الجمال هناك جمال اصطناعي لا يستحق العبادة، أجابني «الجمال وحده يستحق العبادة، لأنه يتمم الحياة. انه أعظم من الحب الذي يعد أيضاً جمالاً. اعلمي أن الحب يفنى دون جمال». ولأنه يعبد الجمال ويقدسه أراني عاجزة عن قول الحقيقة له. فأنا.. أنا مدنسة.

ـ ماذا.. هل اغتصبت؟

استدارت سالي ببطء لتنظر إليها :

ـ لا، أبداً، لكن اعلمي انني ما عدت تلك المرأة التي أحبها دوغلاس. صدقيني يا فيليسا. إذا عرف الحقيقة فلن يرغب فيّ أبداً. لذلك اجد ان الكذب خيرا من الحقيقة.

هزت فيليسا رأسها حائرة :

ـ لست أفهم... ألن تخبريني عما حدث لك؟

ـ لا.. فأنت ستشعرين بالأسى علي، ولن تستطيعي إخفاء

www.elromancia.com

مشاعرك عن دوغلاس. عندما يذهب، سأخبرك.. فأنا بحاجة لأن أخبر أحداً.

عادتا ببطء للانضمام إلى الرجلين، وما ان اقتربتا حتى وقف دوغلاس وتجنبتا عينيه أثناء جمعهما الاغراض، وهذا ما جعله متجهماً.

امضى الأربعة نهارهم ومساءهم معاً بسلام. وفي الصباح التالي استيقظت سالي باكراً ثم خرجت في نزهة طويلة في المراعي، تاركة دوغلاس وفيليسا معاً أحب دوغلاس ذلك أم لم يحب. عندما عادت من نزهتها سمعت صوت طرقات فأس خلف المنزل فأسرعت إلى هناك حيث وجدت دوغلاس يهوي بفأسه على جذع شجرة بينما تجمعت قربه حزمة من الحطب. في البداية لم يلاحظ وجودها لأنه كان منهمكا في صب غضبه على الحطب أمامه. لكن عندما رآها واقفة هناك أهوى بفأسه على الحطبة الكبيرة بقوة جعلتها تنشق إلى نصفين حيث علقت الفأس فيها، ثم دون ترقب تقدم منها ليجذبها نحوه بقوة معانقاً إياها بعنف وجوع.

صدمها بعناقه هذا، فلم تستطع التفكير بالمقاومة بل استسلمت إلى ذراعيه وهي تشم رائحة العرق الرجولي المنبعث من مسامه، هذه الرائحة التي ايقظت فيها مشاعر المرأة الضعيفة أمام قوة الرجل.

كانت مشاعرها تتأجج رغبة وحباً حتى تمنت ان تهب له نفسها هنا فوق العشب وتحت أشعة الشمس الذهبية، تحركت يداها نحوه وهي تغرز اظافرها في جلده ، لكن الخوف الكبير من ان يكتشف أمرها منعها من المتابعة.

لم تكن بحاجة لتقول «لا تلمسني» لأنه قرأ ذلك في عينيها

وعندما أرادت الذهاب اعترضها قائلاً :

ـ أين كنت؟ لقد قلقت فيليسا عليك.

ـ ذهبت في نزهة. فأنا احب السير في المراعي.

قال بصوت أجش :

ـ لا تحاولي خداعي يا سالي.. فأنا أعرفك انك تدفعينني لأكون مع فيليسا.

ـ أجل.. لقد طلبت منها إبعادك عني، لأنني وجدت أنك عندما تتكلم مع فيليسا عن الاشياء الطبيعية ستتمكن من فهم الأمور بشكل أفضل حيث سيتبين لك ان ما حدث ما هو بأمر فظيع.

ـ من الواضح ان ما حدث لم يكن شيئاً بالنسبة لك.

دس دوغلاس يديه في جيبه وهو يجاهد في السيطرة على أعصابه.

ـ لم توضحي إلى الآن ما أريده.

ـ وهل هذا مهم؟

ـ اجل.. إنه مهم ! فلن أقضي ما تبقى من حياتي أتساءل لماذا. لماذا تركتني...

ـ لقد قلت لك.

ـ لقد قلت إنك هربت مع رجل فرنسي ما اسمه؟

فردت عليه مذعورة :

ـ اسمه ليس مهماً.

ـ نعم ربما اسمه لا يهم، لكن ما يهم أن أعرف سبب هجرك حياتك وعالمك فهل تخجلين من نفسك؟

ـ أخجل؟

- تخجلين من جعل نفسك أضحوكة بسبب رجل.

- لا. . انا لست خجولة من حبي له. . كما انني لا أعتقد أنني قد جعلت من نفسي أضحوكة. فبضعة شهور معه تساوي ان أتخلى عن كل شي. . . انا فقط منزعجة لأنه لا يريدني بصورة دائمة هذا كل شيء.

- وانا لا مكان لي في كل هذا؟

فردت عليه كاذبة وقلبها ينزف ألماً :

- انت تعرف هذا تماماً.

- بالفعل. . أعرف.

- وهكذا فانت ترى ان وجودك هنا. . لا معنى له.

تراجعت خوفاً من النظرة الإجرامية التي ملأت وجهه، وقال وهو لا يكاد يسيطر على نفسه :

- حسناً، اعلمي انني سأبقى هنا بغية إزعاجك وأذيتك، وعندما أروي غليلي أتركك راحلاً.

دار على عقبيه، ثم دخل المنزل، وجسده يرتجف من الغضب المكبوح، وأخذ يتقرب من فيليسا طوال النهار. . واستمر الوضع هكذا إلى اليوم التالي، ولكن في المساء، اقترحت فيليسا ان ينهي دوغلاس اللوحة التي يرسمها لسالي فرد دوغلاس وهو يداعب خصلة شعرها الاشقر :

- أشك في أنها ستقبل الجلوس لأرسمها.

- ولكنها بالطبع ستفعل. . أليس كذلك ياسالي؟

وافقت على مضض لأن جلوسها أمامه سيبعد يده عن فيليسا. لكنها عادت فندمت على ذلك لأنها الآن ستبقى تحت ناظريه وقتا

غير قصير. عندما انتهى من إكمال رسم شعرها ويضع لمسات أخيرة تراجع ليتأمل الصورة بعيني الناقد.

- لقد انتهت، ولن أستطيع فعل المزيد بها.

كانت فيليسا تراقب بصمت، لكنها وقفت وتقدمت لتقف قربه :

- عظيمة. . . تعالي وانظري يا سالي.

أطاعتها سالي ببطء حيث رأت في الصورة شيئا مختلفا، شيئا أبعد من اللمسات الاخيرة. لم تستطع معرفته في البداية، لكنها عندما انتبهت شهقت بخوف لأنها رأت ان دوغلاس قد اعاد رسم عينيها اللتين بعد ان كانتا مليئتين بالبهجة والحب أصبحتا بركتين سوداوين من الحزن، كان وجهها جميلاً لكن بريق الحياة انطفأ فيه، تاركا اياها قوقعة مهجورة. عندها ادركت ان جمالها بالنسبة له قد زال، فهي لم تعد المرأة التي تستحق العبادة.

كان الوقت متأخراً، عندما ذهبت سالي إلى غرفة نومها، لكنها مع ذلك عجزت عن النوم، وبينما هي أرقة سمعت صوت الساعة الكبيرة تعلن الواحدة بعد منتصف الليل. وبعد قليل سمعت صوت باب غرفة فيليسا التي ظنتها تقصد الحمام لكن وقع أقدامها اشار إلى انها نزلت بسرعة إلى تحت. ثم سمعت صوت غرفة الجلوس، حيث ينام دوغلاس، ينفتح ببطء ثم يقفل.

هذا ما أرادته هي. وما سعت اليه. ويجب ان تكون مسرورة. لكنها استلقت بحزن عميق الليل كله دون ان يغمض لها جفن فكان ان سمعت وقع أقدام فيليسا وهي تصعد إلى غرفتها بعد ساعتين.

في الصباح التالي، تأخرت فيليسا في الاستيقاظ، ودوغلاس بقي في غرفته حتى العاشرة أما سالي فشغلت نفسها في البداية بصنع الخبز. ثم ذهبت إلى القرية للتبضع ثم زارت روجر أثناء عودتها لتدعوه لقضاء السهرة معهم.

وعندما زارهم روجر في المساء، اصبحت الأمور أسهل بالنسبة لها، فقد تحدث بشكل طبيعي، عن الاشياء اليومية، مما جعل فيليسا ودوغلاس يضحكان. وجلسوا حول المائدة ليتناولوا العشاء، وظنت سالي انها ستتغلب على يوم جديد.

كان كل شيء يسير على ما يرام إلى ان طرح دوغلاس سؤالاً عرضياً لم تنتبه اليه في البداية لأنها كانت غارقة في أحزانها.

ـ لقد قالت لي سالي إنك تحب السيارات القديمة.

ـ أجل.. لقد اعطتني سيارة عمتها القديمة منذ بداية شهر تشرين الأول، ما زلت أعمل لأدفع ثمنها.

لم يلاحظ احدهم الدهشة المباغتة التي اعتلت وجه دوغلاس وهو يقول : «تشرين الاول؟».

ـ اجل.. عندما أتت سالي إلى هنا. كنت أهتم بالسيارة منذ وفاة عمتها، لذلك طلبت منها في اليوم الثاني من وصولها شراءها.

ـ وهل أتت إلى هنا وحدها؟

ـ لماذا.. اجل.. انها دائماً وحدها.. انها...

توقف روجر، وقد لاحظ الصمت المريب الذي ملأ الغرفة وعيونهم المصوبة تجاهه. عينا فيليسا المذهولتين، وعينا سالي المذعورتان، وعينا دوغلاس الغاضبتين.

قال روجر ببراءة ودهشة :

ـ ما الأمر؟ ماذا قلت كي...؟

لكن دوغلاس كان قد استدار ليواجه سالي وهو يمسك ذراعها جاذباً إياها للوقوف على قدميها.

ـ إذاً، لم يكن هناك رجل آخر. كل ما قلته كان كذباً. لقد أتيت إلى هنا راساً من لندن. لقد هربت مني إذاً... مني!

وقفزت فيليسا محاولة التدخل.

ـ دوغلاس أرجوك..

لكنه دفعها عنه بخشونة، ونظر في عيني سالي المذعورتين، وهز رأسه بقوة :

ـ ستقولين الحقيقة الآن أتفهمين؟ ماذا فعلت كي تهربي مني؟ وما هو الشيء الفظيع الذي جعلك تكتبين تلك الرسالة اللعينة، المليئة بالأكاذيب القاسية.

أخذ يهزها :

ـ حسناً؟ لماذا؟ أيتها الفاسقة السادية، ماذا فعلت كي تفعلي بي كل ذلك.

كان يصرخ في وجهها وصوته مليء بغضب كبير جعل فيليسا تدفعه بعيداً عنها دون فائدة.

ـ اتركها!

لكن دوغلاس لم يأبه بها بل جذب سالي بخشونة وقسوة وهو يصرخ :

ـ ستقولين لي! ستقولين كل شيء! هل السبب حبي الشديد لك؟ هل حبي جعلك تكرهينني؟

فجأة عادت سالي للحياة وهي تصرخ : «لا» ولم تلبث ان جذبت ذراعها منه وتراجعت غير قادرة على الصمود أكثر :

ـ لم يكن الأمر يتعلق بك. . السبب هو انا. . انا !

وتدفقت الدموع على وجهها، وتابعت منتحبة :

ـ أوه. . لماذا لم تبق بعيداً عني؟ لماذا لم تكرهني؟

تقدم خطوة منها، لكنها تراجعت وجسدها يرتجف بعنف :

ـ حسن جداً ! تريد معرفة الحقيقة. . . سأريك ما هي الحقيقة !

وقبل ان يوقفها أحد ركضت إلى غرفة الجلوس حيث اللوحة فوق الحمالة، وأخذت تفتش بين اغراض الرسم إلى ان وجدت سكيناً حاداً طويلاً. . .

ـ سالي . . لا !

جاءها صوت فيليسا من خلفها، ولكن سالي استدارت بعنف نحو الصورة، ثم طعنتها بالسكين إلى ان قطعت منها الثدي الأيسر تماماً، وتركته قطعاً ممزقة فوق الأرض، ومع ذلك بقي يتحداها حيث هو بجماله الوردي.

٨ ـ معاً نستطيع . . .

كانت فيليسا أول من أدرك الحقيقة. فصاحت وهي تغوص في مقعدها وعيناها مذعورتان :

ـ اوه. . لا !. . اوه. . لا !

لكن دوغلاس الذي لم يشاهد سوى اللوحة الممزقة صاح بغضب :

ـ ماذا فعلت ايتها المجنونة؟ ماذا دهاك؟ لماذا. . . ؟

ـ ألم تفهم بعد ! هل علي ان اقولها لك حرفياً لتفهم؟ حسناً. . انظر. . انظر !

أخذت تخلع كنزتها وتمزق قميصها بسرعة ودموعها تنهمر انهماراً.

ـ اوه. . لا بأس يا روجر، لا تدر وجهك فلا شيء يمكنك النظر إليه. . لا شيء !

وعند آخر كلمة، وبشهقة كبيرة، نحّت الجزء الاصطناعي لتكشف عن الجرح الذي لم يلتئم نهائياً بعد فوق صدرها والذي زال منه كل اللحم تحت جلده.

وصعق روجر صامتاً. بينما قال دوغلاس «يا إلهي الكريم» وهو يتراجع إلى الخلف باشمئزاز، وعيناه مثبتتان على صدرها إلى ان رفع راحتيه ليغطي بهما وجهه.

أما سالي التي ارتفع رأسها فقد جاهدت لتسيطر على نفسها بعد

www.elromancia.com

ان احست بأن حنجرتها قد انشقت نصفين ثم، فجأة، أنزلت ثيابها، وركضت نحو دوغلاس تضربه.

- اخرج من هنا. . ! هيا. . ! اخرج ! اخرج من هنا !

كانت الدهشة قد أفقدته التفكير والحس لذلك لم يحاول مقاومتها بل تركها، تجره خارج الغرفة، ثم خارج الباب وخطواته تتعثر فوق السلم. ولم يلبث أن تعالى صوت سالي بالصياح الهستيري وهي تركض نحو فيليسا التي ما زالت قابعة في الكرسي مذهولة، تنتحب بصمت.

- خذيني من هنا. . . ابعديني عن هنا، خذيني إلى لندن. . ساعديني فيليسا أتوسل اليك ساعديني.

أمسكت فيليسا بيديها :

- اوه. . ايتها المسكينة. . اوه سالي. . كم انا آسفة.

جذبتها سالي لتقف :

- اجل. . أعلم. هيا يا فيليسا توقفي عن البكاء. . أرجوك ابعديه عن هذا المكان، ارجوك.

- لكنني لن أتركك وانت في هذه الحالة البائسة.

- لا، لا تخشي شيئا لأنني تأقلمت مع وضعي. المهم ان نفكر بدوغلاس الآن.

جرتها إلى الردهة :

- ها هو معطفك. . ارتديه بسرعة، وهذه حقيبته.

- وماذا عن ثيابي؟

- سأرسلها لك. . خذي معطف دوغلاس لأن مفاتيح سيارته

في جيبه. هل تستطيعين قيادة سيارته؟

- اجل. . اجل. . ولكن سالي، لا أستطيع الذهاب هكذا.

- بل تستطيعين. اعتني به من أجلي، حاولي ان تخفضي الوطأة عن كاهله.

جرتها إلى الخارج، حيث وجدتا دوغلاس في الحديقة، يجلس على المقعد الخشبي، ورأسه بين يديه، غير واع لما تقوم به سالي التي جرته إلى السيارة، ثم أجلسته في المقعد حيث افاق من ذهوله وصدمته فأخذ ينظر حوله :

- سالي. . ؟ ماذا تفعلين؟

صفقت سالي الباب وصرخت بفيليسا باكية، ناحبة.

- اذهبي. . انطلقي. . اخرجيه من هنا.

أدارت فيليسا السيارة، ثم داست بقدمها فوق دواسة السرعة التي اطلقت للسيارة العنان حتى كادت تصطدم بالسياج اثناء خروجها من الباحة لتتابع بعد ذلك طريقها نازلة التل، وهي تمسح الدموع عن عينيها لترى طريقها بوضوح.

وقفت سالي وسط الحديقة تراقب السيارة إلى ان اختفت أنوارها في المراعي البعيدة. وعندها فقط نظرت إلى ما حولها، والبرد يجتاح كيانها والرجفة تمتد في أوصالها دون ان تستطيع السيطرة على نفسها. ولما استدارت وجدت روجر على بعد أمتار منها فاتحاً ذراعيه، فأسرعت اليه، ليضمها وهو يدفعها إلى داخل المنزل، متجنبا غرفة الجلوس التي فيها اللوحة الممزقة. أدخلها إلى المطبخ الدافىء وهو يضمها ماسحاً شعرها بحنان ورقة وكأنه ام تحنو على

وليدها.

- يا فتاتي المسكينة. . . يا فتاتي المسكينة.

لم تكن سالي تبكي، لكن الرجفة لم تبرح جسدها قبل فترة حيث جلست بعدها وهي تدفع شعرها عن وجهها :

- لا بأس، أنا بخير. . لن أبكي بعد الآن. لقد ولى زمن البكاء.

- هل أعد لك شراباً؟

قالت «لا» ثم وقفت لتنظف الطاولة. فكان ان سألها روجر وهو واقف خلفها :

- لماذا لم تخبريني؟

- لم أرد الشفقة.

- لكنك كنت بأمس الحاجة إلى انسان تحدثينه عن مشكلتك ألم تخبري أحدا حتى فيليسا؟

- لا. . لقد كانت هذه. . مشكلتي الخاصة.

فقال بخشونة :

- إذاً فأنت غبية ايتها الشابة. وكنت أكثر غباء عندما اخفيت عن دوغلاس الحقيقة. كان عليك أن تمنحيه فرصة ان. .

- الم تره؟ عندما شاهد. . عندما نظر إليّ. لقد اشمئز مما رأى. وكنت أعلم ان ردة فعله ستكون على هذا النحو، وما هربت إلا لأتجنب منظره حين يعلم حقيقة الوضع.

- سالي. . يا فتاتي. . .

تقدم منها ليضع يده على كتفها. وصوته مليء بالتعاطف حتى

انه لم يجد الكلمات المناسبة ليعبّر عن مشاعره.

- لا بأس. . حقاً. فبطريقة ما، أنا مسرورة لأن كل شيء قد أصبح واضحاً.

نظفت آخر صحن في يدها ثم ابتسمت لروجر.

- أشكرك لانك وقفت إلى جانبي مؤازراً، أما الآن فأستميحك عذراً بالذهاب لأنني مرهقة.

- لا يمكنني تركك وانت على هذه الحال.

- يجب أن تذهب، فكر بما سيقوله الجيران.

تمكنت سالي من إطلاق ضحكة.

- صدقا. . سأكون بخير. . سأتمكن من النوم جيداً بعد ان ذهبا.

- هل تعديني بأنك لن تؤذي نفسك.

ردت على نظرته بثبات :

- لا. . أعدك بأنني لن ارتكب حماقة.

هز رأسه على مضض، ثم استدار ذاهباً رغم عدم اقتناعه بما يفعل. لوحت له مودعة من الباب الأمامي، ثم اقفلته بالمزلاج، لكن بدل ان تأوي إلى النوم ارتدت ثياباً سميكة ثم تسللت من الباب الخلفي إلى الحديقة لئلا يراها روجر لتقفز بعد ذلك فوق الجدار إلى المراعي.

كان القمر بدراً تقريباً، يضيء كل شيء، تاركاً ظلاله فوق العشب. المراعي غامضة في هذا الليل الادهم، تنبعث منها رائحة الاعشاب والازهار قوية. بينما الصمت الذي يلفها تتخلله

www.elromancia.com

ثغاءات الحملان التي فقدت امهاتها.

حثت سالي خطاها إلى ان وصلت إلى أعلى قمة في المراعي. ثم استدارت لتتأمل ما حولها وهي تفكر بهذه المراعي التي لم تتغير منذ آلاف السنين، فمنذ العصور البدائية كانت المراعي والنجوم وكان الإنسان وشقاؤه. جلست على صخرة لتفكر بالمستقبل فإذا بالماضي لا يبرح خيالها، لا يتركها إلا في احضان تلك الذكرى المرة، ذكرى دوغلاس المشمئز من منظرها.

نحت هذه الفكرة قليلاً وهي تدفع نفسها إلى ان تتذكر كلمات روجر التي انبتها على عدم اعطائها دوغلاس فرصة، كانت تعلم انها لم تكن منصفة عندما أخفت عنه الحقيقة، لكنها تعلم ان رجلاً شريفاً كدوغلاس لن يتخلى عن الزواج منها بدافع الشفقة او الحب، وما لا تريده هو ان ترى وجهه حين يشيحه عنها كلما نظر إلى صدرها المشوه.

تصاعدت الرطوبة من الأرض لتشكل ضباباً منخفضاً، بعث البرد إلى أوصالها فكان ان اخذت تفرك ذراعيها بيديها.

لم تكن الرؤية واضحة، لكنها وهي ابنة هذه التلال تعرف سبيلها إلى الغدير جيداً، لذلك لا خوف من ان تضيع.

اخذت تسلك الطريق نزولاً حتى إذا ما وصلت إلى منتصف الطريق لاحت لها اضواء منزلها التي على ما يبدو ان روجر قد اشعلها بعد ان عاد ليطمئن عليها.

وتنهدت آملة أن لا يكون قد ايقظ القرية كلها ليرسل من يفتش عنها. أخذت تحث الخطى وقدماها تصدران صوتاً مرتفعا فوق

الحصى في سكون الليل. فجأة سمعت من يناديها باسمها «سالي»؟ ولم يكن روجر. . . إنما دوغلاس.

جمدت في مكانها دون حراك وقد توقف على بعد أقدام منها، مترددا جزءاً من ثانية. ثم أسرع ليجذبها اليه وليضمها بين ذراعيه. دقائق طوال خلت من الكلام إلى ان تعالى صوتها حزيناً.

ـ لماذا رجعت اوه. . لماذا رجعت؟

وضع يديه المرتجفتين على رأسها.

ـ أتظنين حقا انني ما عدت أريدك؟ أنا أحبك يا سالي حباً عظيماً لن يغيره أو يبدله شيء مهما عظم او كبر.

وأبقى ذراعه حولها، وعاد بها إلى غرفة الجلوس. حيث لم تجد اللوحة، او القطع الممزقة او الحامل أيضاً.

ـ هنا. . اجلسي قرب النار.

جذب الأريكة قرب المدفأة ثم وضع مزيداً من الحطب بعد ان جلب لها قهوة ساخنة، ثم ركع بقربها وهو يقول :

ـ سأذهب لأقول لفيليسا إنك بخير، لن أغيب سوى دقائق.

ـ أين هي؟

ـ إنها عند روجر، الذي يبحث عنك أيضاً، لكن فيليسا ستخبره بأنك سالمة.

ـ لقد قلت له انني لن أرتكب حماقة.

ـ أعلم ولكننا قلقنا عليك، لن أتأخر.

ـ لا بأس وانما. . عد وحدك.

فابتسم لها وعيناه دافئتان :

- بالطبع.

عاد بعد قليل، وأقفل الباب خلفه، وكأنه يبعد كل العالم عنهما فسألته :

- ألم يعد روجر بعد؟

- لقد أطلقت فيليسا زمور السيارة إشارة له، وهو سيعود بعد ان يسمعه.

جلس على الأرض أمامها، ثم امسك بيدها، فقالت له :

- أنا آسفة لأنني اقلقتك، فلم اقصد من خروجي إلى العراء سوى التفكير بهدوء. ما كان عليك ان تعود. . كان عليك ان تذهب مع فيليسا.

هز رأسه :

- كان ذهابي خطأ لم أدركه لأنني كنت غير واع لما فعلت، فقد كنت مصدوماً لأنني ادركت مدى العذاب الذي ذقته، لكن عندما افقت من ذهولي ووجدت نفسي في السيارة طلبت العودة من فيليسا التي رفضت بإصرار وهي تنصحني بالابتعاد قليلاً حتى تئوبي إلى رشدك، لكنني لم أوافق بل تشاجرت معها حتى حملتها أخيراً من خلف المقود لاجلس مكانها.

- على طريقة رجال الكهوف. . هه؟

- قطعاً. . هل أنهيت قهوتك؟

وأخذ الفنجان منها وأحاطها بذراعيه.

- لم يكن يجب أن أتركك تدفعينني إلى خارج المنزل. ولكنها كانت صدمة رهيبة، يا الهي كيف كان وقعها عليك؟

- كان مدمراً.

ضمها اليه أكثر.

- لقد تصورت كل شيء فظيع إلا هذا.

- لم أكن أريدك ان تعرف.

- ولماذا؟ لماذا لم تقولي لي؟

استوت في جلستها، ورفعت شعرها بيد تعبة :

- أنت فنان، يحب الجمال، أتذكر قولك الذي مفاده انك تحبني لجمال جسدي الرشيق ولسحر وجهي الرائع. وها انا الآن قبيحة لا أملك من جمال الجسد شيئاً.

كانت ردة فعله غير متوقعة بالنسبة لها لأنه وضع يديه على كتفيها وأدارها نحوه وقد ازبدّ وجهه من الغضب :

- أإلى هذه الدرجة تحقرين حبي لك؟ أتظنين ان مشاعري دنيئة إلى هذا الحد؟ لو أن شيئاً قد اصابني أكنت تتوقعين ان اهرب منك؟

- لا. . بالطبع. . ولكن. .

- فلماذا إذاً ظننت ان حبي لك هو أقل درجات من حبك لي؟ ما حدث لك فظيع يا سالي، ولكن لم يكن من حقك اخفاؤه عني. فحبنا العظيم حولته بهروبك هذا إلى شيء وضيع حقير لا قيمة له.

- لا. . لقد راقبت وجهك الذي لم يتحمل النظر إليّ. عندما شاهدني، لقد اخفيت وجهك بيديك. .

- لم أتحمل التفكير بألمك ايتها الحبيبة. أتعلمين بما يشعر الرجل عندما يرى المرأة التي يحبها حتى الجنون مريضة متألمة؟

عندما شاهدت المرارة على وجهه، مدت يدها لتمسك ذراعه جاذبة إياه للجلوس قربها ثانية.

ـ انا آسفة، أعلم أنها صدمة لك، وأعلم ما تحاول ان تقول.

ـ ولكن، هذا ما أحاول ان اقوله.

جذبها لتقف، ثم احتضنها معانقاً. . .

استسلمت بين ذراعيه لدقائق رائعة، تمنت ألا تنتهي أبداً، أبعدها قليلاً ثم قال لها :

ـ هل فهمت ما قلته؟

هزت سالي رأسها وكل حبها باد في عينيها، فتابع دوغلاس :

ـ هل ستعودين معي لتتزوج؟

ـ أرجوك. . اسمع. . عندما خرجت هذه الليلة إلى المراعي، كان ذلك بقصد ان أودعك وأخرج من قلبي إلى الأبد، وعندما بدأت أفكر، أدركت انني هربت منك لانني لن اتحمل نظرتك إليّ لأنني سأفكر بأنك تظنني بشعة. وعلمت انني لم أكن أهرب منك، بل من نفسي. فأنا أكره ما قد اصبحت عليه. قبل ان تأتي إلى هنا، لم أنظر إلى نفسي في المرآة أبداً، ولكن يوم وصلت أردت ان اخبرك الحقيقة، أردت أن أحصل على مواساتك لي، وأن أستند إلى قوتك. لذلك أجبرت نفسي على النظر في المرآة كي أذكر نفسي بقباحتي. وكان ما فعلته الطريقة الوحيدة التي اعطتني القوة لمقاومتك.

ـ اوه يا سالي يا حبي المسكين.

ـ بل المجنونة المعقدة. لم أخبرك الحقيقة لأنني لا اطيق النظر إلى

جسدي المشوه، فكيف لك انت القدرة على النظر بينما انا عاجزة عن ذلك. أنا آسفة يا دوغلاس لأنني قسوت عليك.

رفع يده ليمررها بلطف على وجهها :

ـ اجل. . لقد كنت قاسية لأنك لم تتركيني اشاركك آلامك، أو أساندك بحبي الذي يملأ عليّ قلبي.

وادارت سالي رأسها، وقبلت ظهر يده :

ـ أعلم. . وانا آسفة.

ـ انت ما زلت المرأة التي أحبها وأريدها، فما عليك الآن سوى مصالحة نفسك أثناء وجودي قربك.

فابتسمت :

ـ شكراً لك. . ولكن لا تخف. . سألحق بك إلى لندن. . سأجيء. . ولكن دعني أجد نفسي أولاً.

ـ «دعيني اعيش معك».

لكنها هزت رأسها رافضة.

ـ إذا كنت تعتقدين ان بيني وبين فيليسا شيئاً فأنت مخطئة، لأنني ما تقربت اليها إلا لاجعلك تغارين، أما تلك الليلة التي نزلت فيها إلى غرفة الجلوس فكانت لأقنعها بمساعدتي على كشف الحقيقة. فهل تسمحين لي يا حبيبتي بالعيش معك.

ـ أريدك ان تعود إلى عملك لتعدّ بيتنا، وانا اعدك بالعودة قريباً فلا تقلق.

ـ حسناً، ولكنني سأحدد موعد الزواج وإذا لم تحضري قبل الموعد سآتي إلى هنا وآخذك بالقوة. . تدري ما قلته جيداً.

وقف ومد يده إلى جيب سترته فأخرج الخاتم ليضعه في اصبعها. . فحدقت اليه والدموع تترقرق في عينيها :

ـ وهل أحضرت هذا معك أيضاً؟

ـ بالطبع. . فماذا جئت افعل؟

أمضيا الليل جالسين قرب النار، يتحدثان احياناً، يتعانقان احياناً أخرى، ولكن معظم الوقت قضياه صامتين وهما يشعران بالسعادة لانهما معا، يحاولان نسيان الماضي، ليتطلعا نحو المستقبل.

سافر دوغلاس في الصباح التالي، آخذاً فيليسا معه. راقبتهما سالي، ثم استدارت لتبدأ البحث عن ذاتها التائهة.

كان دوغلاس يراسلها كل يوم ويتصل بها على هاتف روجر. في البداية كان صابراً، لكنه بعد اسبوعين بدأ صبره ينفذ وما ان مضى شهر حتى أظهر غضبه :

ـ لقد حجزت في الكنيسة للزفاف في شهر حزيران، لذا أريدك هنا في أيار على الأقل.

ادركت انها ستخذله كما ستخذل نفسها فصاحت :

ـ لا تدفعني. . . لا تستعجلني !

عندما حان موعد زيارة الاخصائي قصدته إلى عيادته التي وجدت فيها غرفة الاستقبال تكتظ بالنساء اللواتي رافقهن ازواجهن او اصدقاءهن، لكن بعض النسوة أيضاً قدمن وحدهن. أما الظاهرة العامة التي لاحظتها فهي ان اغلبيتهن عجائز أو نساء في منتصف العمر.

كان الطبيب يتأخر مع مرضاه كالعادة، والنساء يدخلن واحدة تلو الأخرى، وبعد مقابلة طويلة خرجت امرأة من الغرفة وعيناها مملوءتان دمعاً، ليقابلها صديقها وهو يضع ذراعيه حولها مواسياً. بعد قليل سرت همهمة اهتمام بين الحاضرات بعد ان دخلت امرأة طويلة وأنيقة وجميلة تبدو أكبر من سالي ببضع سنوات.

كان المقعد قرب سالي فارغاً، لذلك جلست هذه المرأة قربها. . فابتسمت لها سالي وقالت :

ـ أخشى ان تكون كل المواعيد قد تأخرت ساعة على الأقل.

ـ لست قلقة، فلدي متسع من الوقت.

أخذت المرأة مجلة لتتصفحها، وبدت واثقة من نفسها، ولكن سالي كانت واثقة أيضاً عندما أتت في المرة الاولى إلى هذا الاخصائي. في ذاك الوقت لم يحذرها أحد من المصير الذي ينتظرها، لذلك شعرت بأنها لن تستطيع ترك هذه المرأة المسكينة تدخل إلى غرفة الاخصائي دون كلمة تشجيع. التفتت سالي اليها :

ـ ارجوك. . انا لا احاول التدخل او التطفل. ولكن. . إذا دخلت إلى هناك، ولم يكن التشخيص جيداً، فلا تخافي، فإزالة ثدي ليس نهاية العالم و. . .

فقاطعتها المرأة الشابة بهدوء :

ـ اجل أعلم هذا.

ـ تعلمين؟

ـ طبعا. . لقد استأصلت ثديي منذ سنتين.

حدقت اليها وهي لا تصدق ما تراه :

ـ أيعقل؟؟ ! تبدين انيقة ورائقة من نفسك كثيراً.

ـ بالطبع. . انظري. . انتظريني بعد ان تنتهي لتتناول فنجان قهوة معاً.

وقال لها الاخصائي بعد ان فحصها :

ـ عشرة على عشرة.

أحست سالي بالراحة ويعرفان الجميل. . وعندما خرجت وقفت المرأة الاخرى لتقول :

ـ اسمي لودي هانيون، في المستشفى مقهى صغير يقدّم قهوة ليست لذيذة جداً، لكننا على الأقل ستتكلم، انتظريني هناك.

بعد ان استقرتا على الطاولة وامامهما فنجاني القهوة، قالت لودي :

ـ لقد استأصلت ثديك أيضاً، اليس كذلك؟

ـ اجل. . في ايلول الماضي.

ـ ولم تتغلبي على آثاره النفسية بعد. هل انت متزوجة؟

ـ لا. . أنا مخطوبة.

فجأة وجدت نفسها تقص على هذه الغريبة كل شيء.

ـ حسناً. . لماذا لم ترجعي إلى عملك ولماذا لم تتزوجي أيضاً؟

ـ كيف يمكنني ذلك.

ضحكت المرأة.

ـ وما الذي بإمكانه ان يمنعك؟ زوجي لا يمانع أبداً.

ـ زوجك؟ أتعنين انه قد رضخ للأمر الواقع.

ـ لم أكن قد قابلته بعد عندما اجريت العملية.

تأملت المرأة سالي قليلاً ثم اردفت قائلة :

ـ انظري اليّ وإلى نفسك فهل تجدين ما يدل على اننا امرأتين قد استؤصل منهما شيئاً. عندما حدث ما حدث قررت ألا يؤثر ذلك على حياتي وهذا ما عليك فعله في الوقت الراهن. فلماذا تتقوقعين على نفسك وترتدين هذه الثياب البالية. إياك ان تكرهي نفسك. فالسرطان ليس عقوبة. . إنه مرض يمكن الخلاص منه. وما اصابك ليس أمراً يمنعك من التمتع بهذه الحياة فلماذا تهربين من هذا؟

ـ الامر ليس هو نفسه.

مالت المرأة إلى الأمام وقالت بجدية :

ـ انا أعرف المخاطر كما تعرفينها تماماً. . ولكنني صممت انني إذا كنت سأموت، فسأتأكد من انني سأتمتع بكل لحظة من لحظات حياتي. . انها الطريقة الوحيدة ياسالي. . يجب عليك ان تلملمي شتات نفسك وان تسيطري على مصيرك لئلا تصبحين فريسة الخوف دائماً وأبداً. واعلمي ان الطب في تطور دائم ولن يطول الوقت قبل ان يكتشف عالم دواء لهذا المرض الخبيث.

هزت سالي رأسها وعيناها تبرقان.

ـ أجل أعلم هذا. . وشكراً لك.

انهت لودي فنجانها ووقفت :

ـ الأفضل ان اعود الآن. . سرني لقاؤك. . هل سأراك هنا عندما تعودين للزيارة القادمة؟

ـ لا. . فسأعود إلى لندن، سأعود إلى موطني.

مضت بضعة أيام، قبل ان يرن جرس الهاتف في مكتب

دوغلاس في وقت متأخر من بعد الظهر، ولأنه كان وحده، التقط السماعة وانتباهه لا يزال محصوراً بالرسم الذي أمامه :

ـ هنا دوغلاس لايت.

ـ حسنا، مرحباً دوغلاس لايت. . هل يمكن ان تكون حراً الليلة؟

ـ سالي؟

أوقع القلم الذي كان يحمله، واتسع فمه بابتسامة سعادة :

ـ اين انت؟

ـ ردّ على سؤالي فقط.

ـ اجل بالطبع أنا حر الليلة، وحر ما تبقى من حياتي لأجلك.

فضحكت :

ـ عظيم قد يتطلب الأمر هذه المدة.

ـ لأجل ماذا؟

اصبح صوتها ناعماً.

ـ كي اظهر لك عظيم حبي.

تنهد عميقاً. .

ـ سالي. . . أين انت؟

ـ في لندن. . لقد استعرت شقة فيليسا، التي سافرت في عمل لبضعة أيام.

ـ سأحضر على الفور.

ـ لا. . لماذا لا تنظر من نافذتك عبر الشارع.

ـ ماذا؟

ووقف بسرعة، ونظر إلى الخارج. فلوحت سالي له بيدها من غرفة الهاتف الخشبية عبر الشارع حيث كانت تقف. . سالي القديمة، بجمالها وأناقتها وحيويتها، وقالت :

ـ حسناً ماذا تنتظر؟

لم تمض دقيقتان حتى كان على مقربة منها وهو يركض عبر الشارع ليحضنها بين ذراعيه. وعندما تركها، أمسك بها بعيداً على مدى ذراعيه، وعيناه تمران فوقها باستغراب وسعادة.

ـ تبدين رائعة. . ! ماذا حدث لك؟

فضحكت :

ـ لقد التقيت بملاك حارس.

ـ حسنا، أنا سعيد بهذا. . فقد فعل لك المعجزات.

وضعت ذراعها بذراعه :

ـ إلى أين؟

ـ إلى شقة فيليسا بالطابق.

عندما بلغا الشقة استدار اليها وقال :

ـ هل أنت واثقة من انك تريدين الزواج؟

ـ اجل، إذا كنت انت واثق.

ـ لقد كنت واثقاً دائماً.

مد يده ممسكا اياها بحب وحنان.

ـ انت تعلم انني لن اشفى أبداً.

ـ أعلم. .

جذبها إلى ذراعيه وهو يقول :

معاً سنتغلب بمزاج الحياة. . يا حبيبي . . يا حبي الغالي.

www.elromancia.com